



المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية اللغة العربية
قسم الدراسات العليا

الرسائل النثرية في الوصف الأندلسي إلى نهاية القرن الثامن الهجري

رسالة مقدمة للحصول على درجة الماجستير

إعداد الطالبة

حنان تميم السلمي

إشراف سعادة

أ.د. عبدالله الزهراني

الفصل الدراسي الأول

١٤٣٣هـ - ١٤٣٤هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴾ (٢٩)

(المؤمنون: ٢٩)

الإهداء

إلى نبع الحنان التي تفيض على من حولها حباً ودفناً دائمين ... والدتي
إلى من سعى جاهداً لإنارة دربي وتحقيق طموحاتي ... أخي بدر

إلى ابني ثامر الذي عانى الكثير من انشغالي عنه لإنجاز هذا
البحث المتواضع

إلى من لهم في قلبي مكانة وفي نفسي منزلة وفي
خاطري رعشة اعتزاز ... إخوتي وأخواتي ...

إليهم جميعاً أهدي هذا الجهد المتواضع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملخص الدراسة :

عنوان الدراسة : (الرسائل النثرية في الوصف الأندلسي إلى نهاية القرن السادس الهجري).

(بحث مقدم لقسم الدراسات العليا بكلية اللغة العربية لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي).

اسم الباحثة : حنان تميم عبداللطيف السلمي .

خطة الموضوع : -المقدمة .

التمهيد .

الفصل الأول : في الطبيعة المتحركة :

(الحيوان ، والطيور).

في الطبيعة الصامتة :

(الجبال ، الأودية ، الأنهار ، الغيث ، الأشجار ، المنازل.

المساجد ، النافورة).

الفصل الثاني : في الشكل .

(بنية الرسالة ، البناء اللغوي ، الوضوح والغرابية ،

الأساليب ، الاقتباس والتضمين ، الصور البيانية)

-الخاتمة .

هدف الدراسة:

تسعى هذه الدراسة إلى عدد من نماذج الرسائل الوصفية لكتاب الأندلس

التي كُتبت إلى نهاية القرن الثامن الهجري والتعريف بأهم كتابها ، فتمثلت تلك

الرسائل في وصف الطبيعة الصامتة والمتحركة بكل صورها الحية ، وإبراز

إبداعات كتّابها النثرية من خلال جماليات فنية واسلوبية ، ولغة شاعرة .

أهم النتائج :

تعتبر الرسائل الوصفية لونهاً من ألوان أدب الرسائل المتعددة ، بل من أهم أنواعه التي أبدع كُتابها ، فعكست صورة النفس الإنسانية في التعبير عن بيئتها المحيطة بها فتأثرت بها. لم تُعرف الرسائل الوصفية كمصطلح أدبي يدل على نمطٍ خاص في أدب الرسائل ، ولكن جاءت الرسائل الوصفية ضمن الرسائل الإخوانية ، وغيرها ومن هنا جات تسميتها . إحاطة الرسائل الوصفية بالتفاصيل الدقيقة للمجتمع الأندلسي وبيئته ، فسورته تصويراً نابضاً بالحياة ، فرسمت الطبيعة بكل ألوانها.

أهم التوصيات :

ضرورة القيام بدراسة مستقلة لكل أديب أندلسي على حدة ، تقوم على إبراز نتاجه الأدبي وخصائص أسلوبه .-القيام بدراسة متخصصة تُعنى بجمع الرسائل المتنوعة من بطون الكتب وتصنيفها تحت مسمياتها المختلفة والظروف العامة التي كُتبت فيها .
قيام دراسة متخصصة بالجماليات النقدية الفنية والأسلوبية لأنواع أدب الرسائل المختلفة .

Summary of the Study

Study Title : (Messages prose description in the Andalusian to the end of the sixth century AH)

(A paper presented to the Department of Graduate Studies , Faculty of Arabic Language Master's degree in Arabic literature)

The name of the researcher : Hanan Abdul Latif Tamim peaceful.

Plan Subject: - Introduction Book

Chapter One : In the animated nature:

(Animals , birds)

In the silent nature:

(Mountains , valleys , rivers , Ghaith , trees , houses
Mosques , Fountain)

Chapter II : in Figure

(Message structure , the construction of language , clarity and strangeness, Methods , graphic images) - Conclusion.

The goal of the study:

This study seeks to a number of models messages descriptive book Andalusia started to the end of the sixth century AH and the definition of the most important writers , Vtmthelt those messages described in Nature silent and animation in all its forms live , and to highlight the creations of her prose through the aesthetics of technical and stylistic and poetic language.

The most important results:

is a descriptive messages Luna colors of literature MMS , but the most important types of which excelled her book , Fkst picture of the human soul in the expression of their environment surrounding Vtathert out .

Messages are not known as a term descriptive literature indicates the special pattern in the literature of the messages , but the messages came descriptive messages within the Muslim Brotherhood , and the other is here Jat renamed . Briefing descriptive messages precise details of the Andalusian society and the environment , Vsourth portrayal vibrant , so I drew all the colors of nature.

The most important recommendations:

-The need to do an independent study of each writer Andalusian separately , based on highlighting his accomplishments and characteristics of literary style . - A study of specialized collect messages from the stomachs of various books and categorized under various denominations and the general conditions which were written.

-Establishment of a specialized study Paljmagliat cash stylistic and technical literature for the types of messages Andalusian.

الشكر والتقدير

أتوجه بالشكر إلى جامعة أم القرى ممثلة في كلية اللغة العربية ، وقسم الدراسات العليا فيها ومسئوليهما جميعاً على ما أتاحوه لي من فرصة تحقيق هدفي في مواصلة الدراسات العليا .

كما أشكر أستاذي الفاضل / د . عبدالله بن إبراهيم الزهراني . الذي أحاطني بإشعاع نوره العلمي ، حتى نهلت من علمه الشيء الكثير ، فكان - بحق - نعم المعين ، ونعم المثال والقُدوة الحسنة التي تمثلها سلوكه العلمي في سعة صدره ، وتواضعه ، والشعور بالمسئولية تجاه طلابه وطالباته ، فرعى هذا البحث إلى أن جاء على هذه الصورة ، فأخذ بيدي وقدم لي يد العون والمساعدة ، فلا أجد ما أقول سوى شكراً يا سيدي الفاضل ، وبورك في علمك وأدبك وجزاك الله تعالى عني خيراً الجزاء .

وأشكر كذلك لجنة المناقشة ، على تفضلهم بقبول مناقشة هذه الرسالة ، وتكرمهم بقراءتها ، وإبداء الملحوظات حولها ، التي لاشك أنها سوف تضيء لي كثيراً من الجوانب التي لم أتنبّه إليها ، وتثير قضايا ذات علاقة بها قصر عنها جهدي .

الباحثة :

حنان السلمي

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين ، حمداً يليق بجلاله والشكر لله أكرم الأكرمين ، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على هديه إلى يوم الدين ، {اللَّهُمَّ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} ، وبعد ، :

ازدهر النثر في الأندلس إلى نهاية القرن السادس الهجري ازدهاراً كبيراً ، بلغ به أقصى درجات ازدهاره و حيث شاعت الرسائل الأدبية بين الكُتَّاب على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية ، فقد كان منهم الأمراء والوزراء والأعيان وأرباب السيوف ، وأخذوا يتبادلون الرسائل فيما بينهم في شتى المواضيع معبرين بها عن قضايا عصرهم ، و عما يعتلج في نفوسهم من إحساس متدفق ، وقدرة عالية ، على الانفعال بكل مظهر من مظاهره .

وفي العصور الأخيرة تنوعت أساليب الأداء الفني فاتخذت مستويين: أولهما مستوى الكاتب نفسه كما في نثر ابن الخطيب المرسل، والمسجع، والثاني الاختلاف على مستوى الكتاب، وقد سار في اتجاهين يغلب على الأول الإفراط في الزخرفة اللفظية ورائده إسماعيل بن الأحمر (ت ٨٠٧هـ) . ويغلب على الثاني الميل إلى الأسلوب المرسل، ويبدو في رسالة القاضي أبي الحسن النباهي التي يعدد فيها معاييب لسان الدين بن الخطيب، وفي كتاب «الخيال» لعبد الله بن محمد بن جُزَيّ، وقد صدر الكتاب بنبذة عن تاريخ ثمانية من ملوك بني الأحمر، ثم تحدث عن صفات الخيل وأحوالها.

من هنا فقد كان لكُتَّاب هذه الحقبة الزمنية نتاجٌ أدبيٌّ غني ، ولذلك سعت هذه الدراسة إلى رصد جانب متميز من جوانب أدبهم النثري ، ممثلاً في رسائل الوصف ، وهي التي تتمثل في وصف الطبيعة وما أبدع فيه هؤلاء الكُتَّاب في هذا الجانب النثري ، وتتجلى فيها مظاهر الطبيعة بكل صورها الحية والصامتة وما كان من جمال لطبيعة الأندلس ومدى تأثير كُتَّابها بطبيعتهم وانعكاسه على نفوسهم

¹ - البقرة (٣٢) .

وشخصياتهم وثقافتهم ، بالإضافة إلى ذلك قيمتها التاريخية ، والأدبية ، وغير ذلك
كما سيتجلى في هذه الدراسة إن شاء الله .

أهمية الموضوع:

الأدب العربي في الأندلس كان وما زال ميداناً ثرياً للنظر والدراسة، وقد نال الشعر الذروة في الدرس الأدبي وكذا النثر في بعض جوانبه وأعلامه إلا أن بقية باقية من النثر لم تسلط عليها الدراسة وكان من تلك البقية فن الرسائل الوصفية الأندلسية، إذ الرسائل الإخوانية والديوانية تناولها الدارسون ، وقد نبه شوقي ضيف رحمه الله إلى أهمية هذا الموضوع وأنه مما يستحق أن يدرس وتسلط عليه الأضواء وقد راعني ما رأيت من عدد جيد من الرسائل، وكذا الشخصيات التي تناولت هذا الموضوع على مستوى الأندلس على اختلاف أزمنته وأمكنته، وقد تعددت مناحي ذلك تناول، ومعلوم أن الوصف الأندلسي قد سلب لب الأدباء فتناولوه شعراً ونثراً، فأما الشعر فقد كفيت مؤونة البحث والتنقيب عنه من قبل الدارسين، وأما النثر فما زالت الدراسة غير كافية ، هالني ما رأيت إذ لا يكاد شيء مما تناوله الشعراء إلا وتناوله الكتاب ، بل وجد من الشعراء من أبدع في الشعر، وأسهم في النثر بنصيب وافر مثل ابن خفاجة...

أسباب اختيار الموضوع:

- إن النثر والنثر الأندلسي خاصة في جانب الرسائل لم يحظ بدراسات متعمقة إلا في حدود قليلة .
- إن النثر في الوصف الأندلسي لم يحظ بدراسة مستقلة .
- المستوى الفني أيضاً لهذا اللون النثري من المستويات العالية التي يجب العناية به ، فهو لا يقل عن الشعر الأندلسي .

أهداف البحث وتساؤلاته :

- الكشف عن مدى التوافق بين الشعراء وكتاب الرسائل في هذا الموضوع .
- بيان مكانة الرسائل النثرية في الوصف وهل يمثل موضوعاً جديراً بالدرس.

- هل المستوى الفني للوصف النثري يوازي المستوى الشعري؟
- ما مدى مشاركة الشعراء في فن الرسائل؟ وهل مستوى كتابتهم النثرية توازي إبداعهم الشعري؟
- هل كان الكتاب المتخصصون الذين اشتهروا في الرسائل الإخوانية والديوانية لهم إبداع في الوصف النثري؟
- كل ذلك وغيره ستحاول الرسالة الإجابة عنه .

المنهج :

من المسلم به أن مثل هذه الدراسات ستفيد من كافة المناهج ولكنها ستركز على المنهج التحليلي، وتفيد أيضاً من المنهج الوصفي في بعض الجوانب لأن الرسائل منثورة في بطون الكتب ، أو ما جمع نثره مثل رسائل ابن أبي الخصال .

الدراسات السابقة :

لا توجد دراسة مستقلة عن الوصف في الرسائل الأندلسية إلا أن كل من كتب عن النثر الأندلسي أشار إلى هذه الظاهرة ولا تزيد تلك الإشارات عن (عشرين صفحة) وأشارت أمل برزنجي في دراستها عن ابن أبي الخصال إشارة طفيفة إلى الوصف في رسائله، ومع ذلك سأفيد من تلك الإشارات التي ما كانت لتفي بهذا الموضوع الذي يستحق الدرس لما يحتله من مساحة في النثر الأندلسي.

مادة البحث وخطته :

أ- مادة البحث :

تتمثل فيما وصلنا من النصوص في رسائل الوصف الأندلسي التي كتبت إلى نهاية القرن الثامن الهجري .

وكانت هذه النصوص إما مستقلة بذاتها أو متداخلة مع الرسائل الإخوانية ورسائل الصيد والطرديات والرحلات ، فكانت هذه النصوص تكشف عن إبداع الكاتب الأندلسي في وصف طبيعته ومدى تأثره بها .

وتقوم هذه الدراسة على اختيار نماذج من النصوص التي وصفت الطبيعة الأندلسية، وأبرز السمات الشكلية في رسائل الوصف إلى نهاية القرن السادس الهجري .

ب- خطة البحث :

جاءت الدراسة الأدبية للرسائل الوصفية في مقدمة وتمهيد وفصلين . وتشكلت

في المخطط التالي :

المقدمة : وهي مدار المعالجة هنا .

التمهيد: ويشتمل على :

مكانة الرسائل في الأندلس

-أهم الكتاب

الفصل الأول: ويتناول وصف الطبيعة وجاء في مبحثين :

المبحث الأول : الطبيعة المتحركة وتدرج تحت المواضيع التالية :

الحيوان .

الطيور.

المبحث الثاني : الطبيعة الصامتة : وتدرج تحت المواضيع التالية :

الجبال.

الأودية .

الأنهار .

الغيث .

الأشجار.

المنازل والمساجد.

النافورة.

الفصل الثاني : (الشكل) : ويشتمل على الدراسة الفنية لرسائل الوصف

الأندلسي ممثلة في مبحثين :

المبحث الأول : بنية الرسالة.

المبحث الثاني : البناء اللغوي.

الوضوح والغرابة في الألفاظ.

الأساليب.

الاقتباس والتضمين

الصور البيانية.

الخاتمة: وقد تضمنت نتائج البحث ، وأهم التوصيات .

الفهارس :

-المراجع . فهرس المحتويات .

- الصعوبات التي واجهت الدراسة :

من الصعوبات التي واجهت هذه الدراسة :

١- طول فترة الدراسة التي امتدت لأكثر من قرن "فهي إلى نهاية القرن الثامن

الهجري " .

٢- تداخل الرسائل الوصفية في موضوعات الرسائل الأخرى فلم تنفرد رسائل

خاصة بالوصف إلا القليل مما أدى إلى صعوبة في حصرها وإدراجها

ضمن مسميات محددة للوصف .

- ٣- اعتماد الكُتاب في رسائلهم على كثير من الجماليات الأسلوبية التي تكسب النصوص دلالات بيانية متعددة ، مما تتطلب وقتاً وجهداً لحصرها ودراستها دراسة متأنية .
- ٤- تعدد كتاب الرسائل ، مما يتطلب جهداً في الحصر حتى يتسنى دراسة حياتهم وأدبهم ضمن أسس عامة .
- ٥- عدم الحصول على بعض المصادر والمراجع المهمة فهي من أشد الصعوبات التي واجهتني في إنجاز هذا البحث المتواضع .



التمهيد

((مكانة الرسائل في

الأندلس))

مكانة الرسائل في الأندلس:

إن فن الرسائل من أسبق ألوان النثر الفني إلى الظهور في الأندلس، كما أن أدب الرسائل قد تطور تطوراً واسعاً وتشعبت موضوعاته وأغراضه تبعاً لتشعب أمور الحياة في المجتمع الأندلسي في هذا القرن، واقتحم على الشعر ميدانه وشاركه في أغراضه.

كما اهتم الأندلسيون منذ الفتح الإسلامي لتلك البلاد بالمراسلات التي عرفت فيما بعد بالرسائل الديوانية، ولاسيما أنهم كانوا متمكنين من الخطابة والشعر والكتابة منذ أول قدومهم إلى تلك البلاد، كما وصفهم ابن بسام بأنهم: "كانوا رؤساء خطابة ورؤوس شعر وكتابة"^(١).

وقد كان نشوء الدولة الإسلامية في الأندلس واختلاف مهامها، وتعدد وظائفها السياسية والاجتماعية والإدارية، دافعاً قوياً لنشوء فن الرسالة لتؤدي هذه المهام، وتلك الوظائف، ولعل العهد^(٢) الذي كتبه عبدالعزیز بن موسى بن نصير لـ "نذمير" ملك القوط، أبرز ما يوضح ذلك.

وعندما أخذت هذه الجزيرة من التمدن والتحضر بكل سبب ازدادت حاجتها إلى كتابة الرسائل الديوانية لتواكب مهماتها الجديدة^(٣)، وتسهم في تثبيت دعائمها، وتسيير شؤونها، وتنظيم مجتمعتها، وإلى ذلك يشير ابن خلدون بقوله: "وإنما أگد الحاجة إليها في الدولة الإسلامية، شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد، فصار الكتاب يؤدي كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية"^(٤).

(١) الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩هـ، ١٩٧٩م: ق ١ م ١، ص ١٤.

(٣) بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص: ٢٧٤.

(٤) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، فايز عبدالنبي القيسي، ط ١، ص ٨٨.

(٥) مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ١٣٧٧م، (د. ت): ص ٤٣٦.

وقد اتخذ ولاة الأندلس وأمراؤه منذ بداية القرن الثاني الهجري كتاباً يكتبون لهم فيما يصدر عنهم من رسائل وعهود، وفيما يكتبون به عمّالهم وولاتهم، ويهدّدون به الخارجين على حكمهم^(١).

وكان أولئك الكتاب وإن لم يطلق عليهم اسم كتاب ديوان الرسائل يقوم بشيء من متعلقاته، وهذا يدفع الباحث إلى القول بظهور ديوان الرسائل في الأندلس منذ نهاية النصف الأول من القرن الثاني الهجري، وقد كان البذرة الأولى لتطور ديوان الرسائل فيما بعد حين دعت حياة الدولة المتطورة إليه.

ويظهر جلياً أن أدب الرسائل في الأندلس في القرن الثاني الهجري قد اقتصر على بعض المكاتبات الرسمية كرسائل التوجيهات والأوامر الإدارية، وعهود الأمان، ورسائل الزجر والاستصلاح للخارجين على الحكم إلى جانب النزر اليسير من الرسائل الخاصة التي كان يتبادلها أمراء الأندلس مع بعض وولاتهم ومواليهم^(٢).

أما في القرن الثالث الهجري فقد تطور أدب الرسائل تطوراً ملحوظاً من الناحيتين: الموضوعية والفنية، وذلك بفضل التطور الأدبي والثقافي والحضاري الذي شهده الأندلس في هذا القرن^(٣).

فمن الناحية الموضوعية تعددت آفاق الرسائل الرسمية، واتسعت ميادينها بتعدد مهام الكتاب ومسئولياتهم، فزادت تلك الرسائل التي تعالج الموضوعات الإدارية والتنظيمية والسياسية والعسكرية وغيرها^(٤). كذلك فقد نمت الرسائل

(١) قضاة قرطبة، أبو عبدالله محمد بن الحارث بن أسد القيرواني الخشني، الناشر مكتبة الخانجي القاهرة، ط ١٤١٥ هـ، ص ٩ - ١١.

(٢) نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقرئ التلمساني، ت: إحسان عباس، دار صادر، ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م، ج ٣، ص ٤٠ - ٤١.

(١) الدولة العربية في إسبانيا، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٦ م، ط ٣، ج ١: ص ٢٦٧.

(٢) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله الحميدي، ت: محمد تاويت الطنجي، ط ١، مكتب نشر الثقافة الإسلامية - القاهرة، ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٢ م، ج ٢، ص ٢٢٣ - ٢٢٥.

الخاصة، وأخذت تعالج موضوعات ذاتية جديدة لم تعالجها من قبل كالشكوى والعتاب والذم والشكر وغيرها^(١).

كذلك فقد أخذت الرسالة الإخوانية تعالج بعض موضوعات الشعر^(٢). و لابد أن يشير البحث هنا إلى نشوء لون جديد من الرسائل لم تعرفه الأندلس من قبل ، ذلك هو فن الرسالة الوصفية التي تتخذ شكل المناظرة والمفاخرة على السنة الأزهار والورود^(٣)، وقد كانت هذه البذرة الأولى لتطور رسائل المفاخرات والمفاضلات في الأندلس في القرن الخامس الهجري.

أما من الناحية الفنية فقد مال كتاب الرسائل إلى التأنق والتجمل في تحبير رسائلهم باستعمال الألوان البديعية المختلفة^(٤)، مما سما بالرسالة إلى مرتبة الفن والإبداع، حتى اشتهرت عندهم بعض الرسائل لبلاغتها^(٥).

وهناك أمر كبير الأثر في هذا التطور الفني الذي أصاب أدب الرسائل، ذلك هو تأثر كتاب الرسائل بأساليب النثر المشرقي ومذاهبه الفنية التي عرفت آنذاك، كأسلوب عبد الحميد الكاتب الذي يعد مبتكر أدب الرسالة الفنية في المشرق في أواخر العصر الأموي^(٦)، وأول من أطال الرسائل وأكثر التحميدات في فصول الرسائل^(٧).

وقد أدى تطور أدب الرسائل وازدياد أهميته في الأندلس في هذا القرن إلى نقلة جديدة في ديوان الرسائل لم تكن موجودة من قبل، تلك هي أفراد الأندلسيين للترسيل والإشراف على شؤون ديوان الرسائل وزيراً خاصاً بعد أن قسموا خطة

(٣) أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، إبراهيم الأبياري: ص ١٤٨، ١٦٥.

(٤) نفسه : ص ١٥٧، الذخيرة : ق ١م، ص ٦٣.

(٥) البديع في وصف الربيع لأبي الوليد الإشبيلي: ص ٧٨.

(٦) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى: أبو عبدالله أحمد بن محمد المراكشي، ت: س . كولان، ليفي بروفنسال، ليدن، هولندا، ١٩٤٨م، ج ٢، ص ١٠٨.

(٧) الحلة السيرة، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، ت: الدكتور حسين مؤنس، الناشر: دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م ج ١، ص ٣٦٩.

(١) تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان. تعريب الدكتور: عبد الحليم النجار، ١٩٨٣: ج ٢، ص ١١٦.

(٢) مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي- توم بريميز، طبعة باريس ١٩١٦م: ج ٦، ص ٨١.

من كُتّاب الأمير عبدالرحمن بن الحكم، ومنهم الوليد بن عبدالرحمن بن غانم الذي كان أديباً مترسلاً بليغاً^(١)، ومنهم أبو عثمان عبدالله بن الغمر^(٢)، ومنهم عبيديس الكاتب الشاعر^(٣)، ومنهم أيضاً عبدالله بن محمد الزّجالي^(٤).

ومن مظاهر ازدهار الكتابة وتطورها في الأندلس نبوغ أسر كاملة في الكتابة فقد شاعت الكتابة عدد من أفراد الأسر الواحدة ، كأسر بني أمية بن يزيد التي كانت لبني مروان بالأندلس. وكان بنو الزّجالي كاتبين حاذقين كلهم كتبوا للأمرء^(٥).

ثم جاء القرن الرابع الهجري فكان مجيئه بداية مرحلة جديدة من مراحل تطور أدب الرسائل، إذ إنه قد تطور تطوراً كبيراً فاق ما مر به من تطور في القرن السابق، مما يدفع الباحث إلى القول بأنه قد وضعت في هذا القرن بذور نهضة أدب الرسائل في الأندلس التي بلغت أوجها في القرن الخامس الهجري، ومردّد ذلك عوامل متعددة يتعلق بعضها بالازدهار السياسي الذي بلغته الدولة الأموية في هذا القرن الذي يرتبط بقيام الخلافة الأموية بالأندلس^(٦)، واتساع رقعة الدولة، وامتداد سلطانها، وتعدد جوانب اختصاصها واتصالاتها ولاسيما الخارجية منها.

وكانوا يختارون كتاب الرسائل من أهل الأدب والثقافة ، وممن ملكوا أزمة البلاغة والفصاحة ، واتصفوا بالملكة البيانية وغيرها من أدوات الكتابة ، فقد جاء في "تاريخ افتتاح الأندلس " أن الأمير محمد بن عبدالرحمن الأوسط قال لكاتبه

(٣) مقدمة ابن خلدون، ص ٤٢٤.

(٤) البيان المغرب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٨٠، ٩٣، ٩٥، ١١٣.

(٥) الحلة السيرة، ابن الأبار، محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، ت: الدكتور حسين مؤنس، الناشر: دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م، ج ١، ص ٣٧٤.

(٦) نفسه، ج ١، ص ١٣٩.

(٧) تاريخ افتتاح الأندلس : ص ١٠٤.

(١) جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي، ت: الدكتور بشار عواد معروف وولده محمد، الناشر: دار الغرب الاسلامي - تونس، الطبعة الأولى ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨ م، ص ٨٨.

حامد الزّجالي (١): "تردني لك كتب تعجبني فهل تهملت بشيء من أمور الكتابة
" (٢) .

ولمّا كان الكاتب لسان الخليفة ، فإن سمعة الخلافة والدولة ترتبط بما
تتصف به الرسائل التي يدبّجها الكاتب من فن أدبي وقيم جمالية ، و أن أية عثرة
قلم أو سهو بال من خطأ أو إعجام أو تصحيف ينقص من قدر الخلافة (٣) ، لذلك فقد
أصبح الاهتمام بالرسائل جزءاً من سياسة الدولة الأدبية وخاصة في ختام القرن
الرابع الهجري ، ومما يشهد بذلك ، تلك الرسالة التي دبّجها ابن بُرد الأكبر عن
المظفر بن عامر إلى ولاة الأقاليم وكتاب الدولة موضحاً فيها ما يجب على الكاتب
أن يراعيه في الرسائل من إحكام الخط ، وإقامة الحروف حيث يقول : "وأن تكون
صُدور كُتُب الاعتراضات وعُنواناتها وتواريخها والأعداد في رؤوس رؤسومها
بخطوط أيدي الفوَّاد ، والعَمَّال ، مَنْ كان منهم كاتباً فبيده ، ومَنْ لم يكُتُب فيخطُ
كاتبٍ له معروف ، وأن تكون تسمية طبقات الأجناد فيها قائمة الخُطوط بيّنة
الحُرُوف ... " (٤)

وأخيراً فقد كانت لهذه التطورات الجديدة في الأندلس دورها الكبير في
شروع أدب الرسائل وتطوره، حيث أدرك المجتمع الأندلسي وعلى رأسه الخلفاء
وكبار الكتاب البلغاء أهمية أدب الرسائل وضرورة الاهتمام بالقيم الجمالية والفنية
فيه، باعتباره مرآة واقع الدولة ومستواها الحضاري (٥).

(٢) هو عبدالله بن محمد بن سعيد الزّجالي ، كان كاتباً للأمير عبدالله بن المنذر ، وقد امتد به العمر إلى صدر دولة
عبدالرحمن الناصر فكتب إلى أن توفي سنة ٣٠٢ هـ أنظر ترجمته في المقتبس . ج٢ ، ص٣٢ .

(٣) المقتبس ، ج٢ ص ٣١ .

(٤) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، أبو الحسن علي بن بسّام ، التغلبي ، الشنتريني (٤٦٠ - ٥٤٢ هـ ، ١٠٦٧-١١٤٧ م)
، ق١م١، ص١٠٦-١٠٧ .

(١) نفسه : ق١م١، ص١٠٦-١٠٧ .

(٢) نفسه ، ق١م١، ص١٠٦ - ١٠٧ .

أهم الكتاب:

لقد نبغ عدد كبير من الكتاب البالغاء، ووضعت فيهم بعض المصنفات التي قسمتهم إلى طبقات بحسب مقدرتهم الكتابية، وإجادتهم الفنية في تحبير الرسائل، ومن هذه المصنفات كتاب (طبقات الكتاب بالأندلس) للأقشطين^(١).

ونبغ في الأندلس عدد كبير من الكتاب ولعلي أعرض أشهر كتاب الفترة و ما تناولته في هذه الدراسة من نتاجهم النثري وهم:

١- الكاتب ابن الجد وهو محمد بن يحيى بن فرح بن الجد الفهري، توفي سنة (٤١٥)^(٢)

٢- الكاتب أحمد بن برد من أهل قرطبة يُكنى: أبا حفص. مات سنة ٤١٨ هـ.^(٣)

٣- ابن شهيد مات ابن شهيد في جمادى الأولى عام ٤٢٦ هـ.^(٤)

٤- محمد بن سليمان الرعيني مات أبو عبدالله الحناط قريباً من (٤٣٠ هـ)^(١).

(١) أنظر ترجمته في المقتبس: ج٣، ص١٤٤، الجذوة: ص٢٨٨، المغرب: ج٢، ص٦٢.

(٢) : اشبيلي الأصل سكن اشبيلية، يعرف بالأحدب أخو الحافظ أبي بكر ابن الجد، كان من أهل التفنن في المعارف والآداب والبلاغة ذا حظ جيد من الفقه والتكلم في الحديث، انظر ترجمته في: الصلة، ابن بشكوال، تحقيق إبراهيم الأبياري دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٩، ط١، ج١: ٥٤٤، القلائد ١٠٩، المعجب: ٢٣٧.

(٣) قال الحميدي: كان ذا حظ وافر من الأدب والبلاغة والشعر، رئيساً مقدماً في الدولة العامرية وبعدها. قال أبو محمد علي بن أحمد: نفسه: ٧٤.

(١) ولد أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن عمر بن محمد بن عيسى بن شهيد الأشجعي في قرطبة عام ٣٨٢ هـ لأسرة قرطبية كان أفرادها يتولون بعض المناصب الهامة في الدولة الأموية في الأندلس فجدّه شهيد كان أول الداخلين من أسرته إلى الأندلس في عهد عبدالرحمن الداخل كما كان أبوه من وزراء الخليفة هشام المؤيد بالله ومن ندماء الحاجب المنصور، عُرف بن شهيد ببلاغته وكرمه إضافة عدد من مؤلفاته التي أشهرها رسالة التوابع والزوابع كما كان له من علم الطب نصيب وافر، كما كانت بينه وبين ابن حزم مكاتبات ومداعبات كما أشاد ابن حزم ببلاغته، انظر ترجمته في المطمح: ١٦، الجذوة: ١٢٤، اليتيمة: ٣٥، الصلة: ٥٩.

- ٥- الكاتب سعيد بن هارون بن سعيد توفي عام (٤٣٠هـ) (٢).
- ٦- الوزير الكاتب أبي المغيرة عبدالوهاب بن حزم .
- ٧- الوزير الغساني توفي سنة (٤٥٩هـ) (٤).
- ٨- الكاتب ابن عبد البر (٥).
- ٩- الكاتب الأعم الشنتمري توفي عام (٤٧٦هـ) (٦).
- ١٠- سراج بن عبد الملك بن سراج بن عبد الله بن سراج أبو الحسين توفي لست بقين من جمادى الآخرة سنة ٥٠٨هـ (٧).
- ١١- وأبو عبدالرحمن محمد بن طاهر توفي في بلنسية في ٢٤ جمادى الآخرة ٥٠٨هـ (١).

- (٢) أبو عبد الله البصير يعرف بابن الحناط كان متقدماً في الأدب والبلاغة والشعر، وشعره كثير مجموع مدح الملوك [والوزراء]، والرؤساء، الصلاة: ١٢
- (٣) من أهل مرسية، يكنى: أبا عثمان، ويعرف بابن صاحب الصلاة، نفسه: ٣٤٤
- (٣) قال ابن بسام كان أبو المغيرة هذا ظبية الحسام، وواسطة النظام، وفارس ميدان، وهو أبو المغيرة عبدالوهاب بن احمد بن عبدالرحمن بن سعيد بن حزم، له ترجمة في الصلاة ٣٦١، الذخيرة ١، ص ١١١
- (٤) هو أحمد بن إبراهيم بن أسود الغساني من أهل المرية يكنى أبا القاسم، رحل إلى المشرق سنة (٤٠٥هـ) وحج ولقى جماعة من العلماء نفسه: ١٠٨
- (١) وهو أبو عمر يوسف بن عبدالله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري ولد عام ٣٦٨هـ وتوفي عام ٤٦٣هـ، وهو الإمام الفقيه المجتهد الحافظ ومحدث عصره، ولد بقرطبة وعاش في كنف أمراء بنو الأفطس بها، وولي قضاء أشبونة وشنترين في مدة المظفر بن الأفطس، طلب العلم بعد التسعين وثلاث مائة فكان فقيهاً عابداً متهجداً، انظر ترجمته في قلائد العقيان، لأبي نصر الفتح بن عبيدالله القيسي الإشبيلي الشهير بابن خاقان ٥٢٩هـ: ١٨١، الصلاة: ٢٧٠.
- (٢) وهو يوسف بن سليمان بن عيسى الشنتمري الأندلسي، أبو الحجاج المعروف بالأعلم، عالم بالأدب واللغة، ولد في شنتمرية الغرب عام (٤١٠هـ)، ورحل إلى قرطبة. كف بصره في آخر عمره ومات في اشبيلية كان مشقوق الشفة العليا، فأشتهر بالأعلم. من كتبه: شرح الشعراء الستة، تحصيل عين الذهب من معدن جوهر الأدب في علم مجازات العرب، كتاب الحماسة، شرح أبيات الجمل، انظر ترجمته في المغرب ١: ٣٩٧، المسالك: ٣٣٤.
- (٣) من أهل قرطبة خاتمة أولى البيان وصدر أعيانها العلماء وعلمائها الأعيان أكثر أخذه عنه أبيه تقييد كتب الأدب والغريب والشروح ودرس كتاب سيبويه وقل مشهور بالأندلس إلا وقد أخذ عنه أبي مروان لازمه نحواً من أربعين سنة، وإليه كانت الرحلة في وقته بعد أبيه في الصلاة: ٣٥٤.

- ١٢- أبو بكر بن عبدالعزيز بن سعيد البطيلموسي ت ٥٢٠ (٢).
- ١٣- ابن خفاجة توفي بمدينة شقر عام (٥٣٣) (٣).
- ١٤- أبو عمر ابن الباجي^٤
- ١٥- الكاتب ابن أبي الخصال توفي ٥٤٠ (٥).
- ١٦- أحمد بن قاسم بن محمد بن قاسم بن أصبغ البياني .. (١)

(٤) ٥٠٨ هـ حاكم مدينة مرسية في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري خلفاً لأبيه أبو بكر بن طاهر حاكم مرسية عُرف بكونه واحداً من أشهر كُتّاب الأندلس في عصره ، واشتهر بالعلم والأدب والشعر والنثر وقد شارف عمره على ٨٠ ثم سير به ودفن في مرسية ، نفسه : ١٣٠ .

(١) كان من جلة الأدباء ورؤسائهم ، كاتباً مترسلاً كتب للمتوكل بن الألفس ثم لابن تاشفين من بعده وتوفي بعد (٥٢٠) وكان من رؤساء العصر في صناعة النثر والنظم ، انظر ترجمته في الإحاطة في أخبار غرناطة للسان الدين ابن الخطيب : ٥٢٨ .

(٢) هو ابو اسحاق إبراهيم بن أبي الفتح بن عبدالله بن خفاجة كان نزيه النفس لا يتكسب بالشعر ولا يمتدح رجاء الرغد والعطاء وكان يعد أديب الأندلس وشاعرها بدليل ما وصفه به المقري في كتابه نوح الطيب ، تفرد ابن خفاجة بالوصف والتصريف فيه ولا سيما وصف الأنهار والأزهار والبساتين والرياض والرياحين ، فكان أوجد الناس فيها حتى لقبه أهل الأندلس بالجنان ، أي البستان ، ولقبه الشقندي بصنوبري الأندلس ، و لابن خفاجة قطع نثرية ، تعتمد فيها أسلوب ابن العميد والهمذاني من حيث السجع والعمل ، والتزام المحسنات اللفظية ويعتبر من أهم أعلام الشعر الغزلي انظر ترجمته في قلاند العقيان :

٢٣١ ، بغية الملتمس : ٢٠٢ ، المسالك : ٢٥٥ .

^٤ (هو يوسف بن جعفر المعروف بابن الباجي من بلغاء الكتاب ، كان فقيهاً جليلاً رحل إلى المشرق وحج وولي قضاء حلب ، وعاد إلى الأندلس فجلاً قدره عند المقتدر بن هود ملك سرقسطة ، انظر القلائد ، ص ١٠٢ . ، المغرب لابن سعيد .

(١) هو محمد بن مسعود بن طيب بن خليفة ولد عام ٤٦٩ هـ وتوفي عام ٥٤٠ هـ درس على شيوخ عصره ، حتى أصبح متقناً في العلوم مستبحراً في الآداب واللغات عالماً بالأخبار شاعراً مترسلاً ، وقد كان إلى جانب رسائله وأشعاره مؤلفات منها " ظل الغمامة وطوق الحمامة " و " سراج الأدب " وقصيدة في نسب الرسول صلى الله عليه وسلم تسمى "معراج المناقب " ، ويقع نظمه ونثره في خمس مجلدات انظر ترجمته في المعجب : ٢٣٧ ، القلائد : ١٧٥ ،

- ١٧- محمد بن أبي الحكم علي بن أبي بكر محمد بن عبد الملك... بن هارون اللخمي توفي سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م^(٢).
- ١٨- أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي المعروف بابن الأبار ولد عام (٥٥٩ هـ) وتوفي عام (٦٥٨ هـ)^(٣).
- ١٩- لسان الدين ابن الخطيب توفي ٧٧٦^(٤).
- ٢٠- والكاتب ابن بشكوال^(٥).
- ٢١- أحمد بن اسماعيل بن دُلَيْم القاضي الجزيري^٦ لم تذكر وفاته .

(٢) من أهل قرطبة يُكنى أبا عمرو ، روى عن أبيه قاسم بن محمد ، عن جده قاسم بن أصبغ ، جميع ما رواه . وذكره الحميدي ، وقال فيه : مُحدثٌ من أهل بيت حديث الصلة : ٨٨ .

(٣) الملقب بابن المرخي، كان بارع الكتابة، رائق الخط، حسن النظم، حافظاً للغة والآداب، نبيه القدر، من مصنفاته: "الغريب المصنف"، و "بغية المرتبط ودرة الملتقط" في الخيل، الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي: " ج ٦ ، ص: ٤٨٧ - ٤٨٨ ، ابن شاکر: "الوافي بالوفيات"، ج ٤ ، ص: ١٥٧ .

(٤) مؤرخ وشاعر أندلسي ولد بطنسية بالأندلس (إسبانيا حالياً). دخل في خدمة بني عبد المؤمن، وفي ٦٣٥ هـ أوفده زيان بن مردنيش إلى أبي زكريا الحفصي سلطان تونس الذي دخل في خدمته فيما بعد. رحل عن بطنسية لما احتلها الإفرنج استقر بتونس ودخل في خدمة أبو زكريا ولما مات أبو زكريا خلفه ابنه المستنصر فرفع مكانته، ثم علم أن ابن الأبار يعيب عليه ونسبت إليه أبيات في هجائه فأمر به فقتل ، جذوة المقتبس في ذكر ولادة الأندلس، الحميدي، ابن أبي نصر : ١٠٧ ، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، أحمد بن يحيى الضبي تحقيق روية عبدالرحمن السويفي: ٣٦٤ .

(١) محمد بن عبد الله بن سعيد بن علي بن أحمد السِّلْماني ويكنى أبا عبدالله هو شاعر وكاتب وفقه مالكي ومؤرخ وفيلسوف وطبيب وسياسي من الأندلس ولد عام ٧١٣ هـ في فاس ، ودرس الأدب والطب والفلسفة بفاس قضى معظم حياته في غرناطة في خدمة بلاط بني نصر وعُرف بذي الوزارتين : الأدب والسيف . نقشت أشعاره على حوائط قصر غرناطة الصلة : ٩٧ .

(٢) هو خلف بن عبد الملك الأندلسي قاضي مؤرخ أندلسي . عاش في قرطبة وتوفي بها له أكثر من خمسين مؤلفاً من أشهرها كتاب الصلة الذي جمع فيه تراجم لأعيان الأندلس مرتباً أسمائهم ترتيباً أبجدياً نفسه : ٧ .

(٣) يكنى : أبا عمر سمع محمد بن أحمد بن الخلاص ، وأبا عبد الله بن العطار . ذكره الحميدي، وقال : سمعنا منه قبل الأربعين والأربعمئة . ومن روايته عن

- ٢٢- الكاتب ابن الدباغ ، أغفلت المصادر ذكر تاريخ وفاته^(١) .
- ٢٣- كاتب الوزير أبي الفضل بن يوسف بن حسداي ، لم تذكر وفاته....
- (٢)

ابن الخلاص ، قال محمد بن القاسم ، قال : حدّثني محمد بن زيّان ، عن الحارث بن مسكين ، عن القاسم ، عن مالك ، قال : قال رجل لعبدالله بن عمر : إني قتلتُ ، فهل لي من توبة فقال أكثر من شرب الماء البارد ، نفسه : ٩٤ .

(٤) هو أبو المطرف عبدالرحمن بن فاخر بن الدبّاغ ، نشأ في سرقسطة ، واشتهر بالبلاغة والفصاحة فقد أعلى أمير بلاده مكانه المقنّدر بن هود ، وقربّه إليّه ، وقلده الوزارة والكتابة ، القلائد : ١٠٦-١٠٩ .

(١) وكان له في الأدب باع ، وبما حمّله من أعباء تلك الدولة استقلال واضطلاع ، ونشأ ابنه ، وبلغ الرتبة العليا من البلاغة والشعر والأدب ، فطارت الكتابة باسمه ، الذخيرة : ق ٣ م ١ ، ص ٤٥٧-٤٥٨ .

وبناء على ما مر من كثرة كتاب الأندلس فإنه يعد حتماً من العوامل التي أدت إلى ازدهار فن الكتابة ، كما أنه لم يتناول كُتَّاب الأندلس في هذه الفترة فن الوصف تناولاً مستقلاً، إلا في نهاية القرن الرابع الهجري ، فقد ظهر هذا الفن مقترناً بإنشائه بتلك الفتوحات العسكرية والانتصارات العظيمة التي حققتها الجيوش الأندلسية ، وارتبط بها ارتباطاً قوياً ، حيث كانت بعض رسائل الإخبار بالفتوحات والتهنئة بالانتصارات التي كان يرسلها القادة إلى الخليفة ، أو يرسلها الخليفة إلى الأمة بشأن المدن التي فتحها أو الانتصارات التي تم تحقيقها ، تضم أحياناً شذرات غير قليلة في وصف الجيوش وسير المعارك ، ومشاهد القتال ، والمناطق التي تم فتحها ، كما أن بعض رسائل الأخبار بالفتوحات التي كانت تكتب بشأن المدن المفتوحة تنطوي أحياناً على قدر لا بأس به من وصف حصانة تلك المدن ومنعتها . ومن ذلك ما كتبه عبدالرحمن الناصر إلى الآفاق بفتح قلعة بُبْشَنَّر وصفاً مركزاً، حيث يقول: " وهي شرف المكان ، وسماكة البنيان ، مع سُمُو الذروة وعُلُو الرِّفعة من كل جهة ، لا شبيه لها ، ولا نَدَّ يقارنها شرفة البنيان ، مساكنها على اتساعها متضاغطة الأبنية بأهلها على فسحة رباعها.."^(١)

بل كان عماد أكثر موضوعات الرسائل من سياسية واجتماعية وصراع مع الصليبيين ، وشوق ديني. ولهذا لا يعدو الباحث عن الحقيقة إن قال إن أدب الرسائل -إلا أقله - راجع إلى باب الوصف.

أما اللون الآخر من الرسائل التي تناولت فن الوصف تناولاً مستقلاً ، فهو لون جديد في الموضوع والشكل^(٢) . وهي الرسائل التي وصفت الطبيعة بكل ألوانها ومظاهرها . وهو ما سوف أتناوله بالبحث والمدارسة .

فلم يكن جمال الطبيعة في الأندلس هو وحده الذي ساعد على ازدهار فن الوصف ، بل إن حياة المجتمع الأندلسي أثرت أيضاً في هذا الوصف، الذي يمثل

(١) المقتبس : ج٥، ص ٢٢٨ .

(٢) أدب الرسائل في القرن الخامس الهجري ، فايز عبدالنبي فلاح القيسي ، ط ١ ، ص ١٣٨ .

تعلق الأندلسيين ببيئتهم وتفضيلها على غيرها من البيئات، ولكون الشعر عندهم يصف طبيعة الأندلس سواء الطبيعية أو الصناعية، فهم يصورونها عن طريق الطبيعة كما أبدعها الله في الحقول والرياض والأنهار والجبال والسماء والنجوم، ويصفونها كما صورها الفن لديهم في القصور والمساجد والبرك والأحواض وغيرها.



الفصل الأول

وصف الطبيعة

المبحث الأول
الطبيعة المتحركة

الطبيعة الحية ما اشتملت عليه من أصناف الحيوان ما عدا الإنسان ، والطبيعة الصامتة في مظاهر وجودها المتجسد في سهولها وبحارها وسمائها وبواديها وحدائقها وحقوقها وما إلى ذلك ، وقد قسم بعضهم الطبيعة الصامتة إلى طبيعية وهي ما أشرنا إليه ، وطبيعة صناعية وهي التي عمل الإنسان في تأليفها وتنسيقها كالقصور والبرك والزخارف المرمية وما شابه ذلك ، والطبيعة الصامتة الطبيعية أكثر ملاءمة لمفهوم كلمة الطبيعة ، وأكثر إحياء للحس الطبيعي ، فهي التي تحدث في النفس ذلك الشعور الذي ينبض بجمالها ، وما أصناف الحيوان فيها إلا متممات منفصلة عن روح الطبيعة بمعناها الحقيقي ، وقد يكون وصف العصفور على غصنه أكثر تجاوباً من وصفه مجرداً عن الغصن والشجر والدوح^١ . وما سنتناوله في هذا المبحث هو جنس الحيوان .

وقد بلغ ولعهم بالطبيعة والاستعانة بها في أغراضهم النثرية حداً يصعب معه على القارئ أن يدري إذا كان الكتاب يتحدثون عن الطبيعة أم كانت الطبيعة تتحدث عنهم لفرط ما تغلغت في نفوسهم ولكثر ما وصفوا من مناظرها^(٢) . ودفعهم ولعهم هذا إلى تأليف كتب ورسائل خاصة في هذا الباب من ذلك مثلاً كتاب "الحدائق" لابن فرج الجياني (ت ٣٦٦هـ) وكتاب "البديع في وصف الربيع" لأبي الوليد اسماعيل الحميري (ت ٤٤٠هـ) وحديقة الارتياح في صفة حقيقة الراح "لأبي عامر بن مسلمة" ، وزمان الربيع "لأبي بكر الخشني الجياني" ، وغيرها .

وبما أن الأندلس بهذه الصفة ، وعالج الشعر ذلك من منظوم الشعراء فإن النثر ما كان ليختلف عن هذا الجمال ، لذا يعد الوصف من أهم الموضوعات التي عالجها أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، فلم يكن لوناً أدبياً مستقلاً فحسب ، بل كان عماد أكثر موضوعات أدب الرسائل من سياسية واجتماعية .

^١ (في الأدب الأندلسي ، د. جودت الركابي ، ص ١٢٥-١٢٦ .

(١) الإنسان والطبيعة في شعرية ابن خفاجة والرومانسيين الفرنسيين ، د. زهر العناني ، دار المتنبّي للنشر والتوزيع ، الأردن ، ط ٢٠٠٢م ، ص ١٨ .

لذلك كله فإن الطبيعة المتحركة حظيت بمكان جيد ، ومساحة ظاهرة في النثر الأندلسي يمكن أن أصنفها تحت القضايا التالية .

الحيوان:

يبدو من خلال النصوص التي انتهت إلينا في وصف الحيوان عند الكتاب الأندلسيين أن الخيل أكثر حيوان ظفر بعنايتهم ووصفهم، وكانت الخيل بألوانها المعهودة في تراثنا وبمسمياتها التي عرفت بها ، تبعاً لألوانها ، من الحيوانات التي وقف أمامها الأندلسي واصفاً لها ومعجباً بألوانها التي تزين صورة جلده الندي مما يدل على أن الكاتب الأندلسي كان علاوة على هذا الإعجاب ، ذا ثقافة أدبية ولغوية أصيلتين أهلتاه لأن يتعامل مع هذا الحيوان من صميم المعجم التراثي واصفاً ألوانه المعروفة بدقة .

ومن ذلك ما جاء في رسالة بعث بها الأصبغ بن أرقم^(١) عن مجاهد العامري إلى مقاتل العامري يصف مهراً استهداه لولده، ويربط فيها بين لونه ومظاهر الطبيعة، ويجعله مستعيراً من القمر والصبح والغلس والنهار ألوانها، فجاء لونه يجمع بين سواد الليل وشقرة الشفق، يقول: "وأتى الورد المحلى بالذهب... فإذا بالقمر قد أعطاه غرته، والصبح قد حباه بلجته، والغلس، قد كساه دلجته، فجمع بين دهما الليل وشقرة الشفق"^(٢).

ثم تحدث عن سرعته ونسبه وصفاته الحميدة، فهو فرس سريع اتخذ من الريح أجنحة له، عظيم فاره توشح بالقوة والنشاط والحدة، أصيل يفوق بنسبه الخيول الكرام، يقول: "وأردتُ إنعاله فإذا الرياح قد أنعلته أجنحة، وتفقدت جلاله

(١) هو عبدالعزيز بن محمد بن أرقم النميري، سكن المرية، وأقام بدانية مدة عند إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري، ثم صار إلى المعتصم بن صمادح، وكان من وجوه رجاله ونهائه أصحابه، توفي في خلافة المعتد بن عباد (انظر: القلائد، القلائد من فرائد الفوائد الدكتور مصطفى السباعي: ص٨، الذخيرة: ق٣م١، ص٣٦٠).

(٢) الذخيرة: ق٣م١، ص٣٦٥.

فإذا الفراهة^(١) قد ألحفته أوشحة، فلو عُزي إلى الأعوج^(٢) لأنف،.. ولو كان من خيل سليمان لما عدل بالصافنات العتاق"^(٣).

ومما جاء في وصف الفرس أيضاً قول الأعلّم الشنتمري : "انظر إليه سليم الأديم، كريم القديم، كأنما نشأ بين الغبراء"^(٤) واليحموم^(٥)، نجمٌ إذا بدا ، وَوَهْمٌ إذا عدا، يستقبل بغزال، ويستدبر برال"^(٦)... "^(٧).

ويبدو في هذا الوصف أن الكاتب ركز على سلالة هذا الفرس ووصفه بأنه كريم ، وأرجع أصله إلى فرسين يضرب بهما المثل في الأصالة " الغبراء "، و" اليحموم " ، ولم يكتف بذلك بل أتى على الشكل يستقبلك بشكل الغزال ويدبر عنك بشكل الرأل .

ولقد عمد بعض الكتاب إلى اتخاذ وصف الخيل وسيلة إلى المدح والمزج بين وصفها والثناء على الممدوح، ومن ذلك ما جاء في رسالة لأبي الأصبع بن الأرقم، حيث ربط بين صفات مهر وصفات مقاتل العامري، وجعل المهر مستعيراً صفاته من مقاتل، حيث يقول: "استعيرت سرعته من إسراعك إلى المكارم، وأخذ سبقه من سبقك إلى ندى حاتم"^(٨)، وعلم لين قيادك للصاحب، واسترقت جودته من سماع جودك على الطالب"^(٩).

(٣) يقال دابة فارهة: أي نشيطة جادة قوية (اللسان: مادة فره).

(٤) الأعوج: فحل كريم تنسب الخيل الكرام إليه (اللسان: مادة عوج).

(٥) الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٦٥.

(٦) الغبراء: فرس حذيفة بن بدر، ويزعم بعض الناس أنها لقيس بن زهير (انظر: أسماء خيل العرب: ص ١٨٣).

(٧) اليحموم: فرس الحسن بن علي بن أبي طالب، وفرس للنعمان بن المنذر، وفرس لهشام بن عبدالمك (انظر: المصدر السابق نفسه: ص ٢٧٠ - ٢٧١).

(٨) الرأل: ولد النعام .

(٩) مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي أبو نصر، تحقيق: محمد علي شوابكة، الناشر: دار عمار - مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣ - ١٩٨٣، ج ١، ط ١، ص ٣٠٧.

(١) حاتم الطائي.

(٢) الذخيرة: ق ٣ م ١، ص ٣٦٤.

وقد كتب محارب بن محمد^(١) رسالة يقول فيها : " وقد تمطى فوق شملة،
حَسَنَةَ القَدِّ مُشْمَعِلَةً... وتخطو فتولى الحصى من وطئها نبذاً، تُسَاطِرُهَا عند يمينه
أَحْسَنَ مُسَاطِرِهِ، وتساورها إن هَمَّتْ بمساورة، سَلْقَةٌ، طَرِيفَةُ الخَلْقَةِ ، ذات ذنب
مستدير كالحلقة ، تَوَزُّ الخَزَانِ أَزْأً، وتورثُ الفتیان حِرْصاً وَعِزّاً، عَرَبِيَّةُ الشَّكْلِ..".
فهو يصف الفرس الخفيفة السريعة ، بصفات عدة ، تدل على أنها عربية
أصيلة ، حيث إن الكاتب لم يترك جزءاً فيها إلا وصفه ، مبرهنناً بذلك مدى
اكتسابها لهذه الصفات التي من الصعب وجودها إلا عند الخيول الأصيلة .^(٢)
ويصف ابن شهيد فرساً فيقول: " وأمال عنان الأدهم (فرسه) إلى طريق ، فجعل
يركض بنا ، وزهير يتأمل آثار فرس لمحناها هناك . فقلتُ له : ما تتبّعك لهذه
الآثار ؟ قال : هي آثارُ فرس حارثة ابن المغلس ..، فلم يزل يتقرّأها (يتبع آثارها)
حتى دفعنا إلى فارس على فرس بيضاء كأنه قضيبٌ على كتيب " .^(٣)

وكذلك وصفوا الحيوانات ذات الصلة بالإنسان، والتي لها أثر كبير على
حياتهم الزراعية، ومن ذلك وصف الأعم الشنتمري للبغل، حيث وصفه بأنه
حيوان مختلط النسب، يمتاز بالجودة والنجابة، وفيه جلد وصبر واحتمال، يعرف
الأماكن العالية عن قرب، يقول: "مُقرَفٌ"^(٤) النسب، مستخير الشرف، آمن الكعب،
إن ركب امتنع اعتماله، أو ركب استقلَّ به أخواله"^(٥).

ومن ذلك أيضاً في وصف البغل رسائل المداعبة رسالة طريفة في
مضمونها حيث يكتبها الكاتب عبداً لله بن أبي الخصال-هذه المرة- على لسان بغل
وجعله يتحدث عن صفاته وفضائله، مما أبعدها عن أسلوب الرمز والإيحاء؛ يعلل
ذلك أنه لم يسقط صورته أو هيئته على واقع معاش أو شخص ما، كما أنه لم يجعل

(٣) انظر ابن الأثير ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله أبي بكر البليسي القضاعي (٦٥٨ هـ ، ١٢٩٥ /) ، تحفة القادم ، ط ١
، أعاد بناءه وعلق عليه إحسان عباس ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت (١٤٠٦ هـ ، ١٩٨٦) ، ص ٤٤ .

(٤) توظيف الموروث الثقافي في النثر الفني الأندلسي في القرن الخامس الهجري ، سطاتم عواد نايف القويدر، ص ٩٨ ،
.٩٩

(١) في الأدب الأندلسي ، ص ٢٤٥ .

(٢) مقرف: هجين (اللسان: مادة قرف).

(٣) المطمح: ص ٣٠٨ .

(البغل) يبوح بآلامه ومتاعبه، أو أحواله الحياتية مع بني البشر، مما كان سيُضفي على مضمون الرسالة عمقاً أبعداً في الدلالة والإيحاء. ومما جاء في هذه الرسالة: "أدام الله لك رفعة الحال، ومبسطة الإقبال، وعادة الإجمال، ولا زلت يشكر صامت وناطق، وصاهل وناهق^(١)، وبطيء وسابق.

قد علمت- أعزك الله- فضيلة البغال، واضطلاعها بالأنقال، وإنها في الكتاب العزيز مذكورة^(٢) ولتقريب الشقة البعيدة مذكورة، تسير سير الأفلاك، وتختص بركاب الأملاك، لاسيما ما أكتنز خلقه اكننازي، وأفرغ قالبه وصنع في طرازي، كالبيدق^(٣) الصدري، والشووق اللبلي^(٤) فلا تثبت له مسافة، ولا تخجل منه حصافة^(٥) ولا يأخذ منه ضمور، ولا يخونه في النشاط ضمير، قد قدر أحسن التقدير، وصور أجمل التصوير، ولم يضطرب اضطراب البعير. يكاد ينخرط مع السهام، ويخطر مع الأوهام، ويتصور لرشاقة الحجم، في نجوم الرجم. كأنه في دائرة بركار، أو هالة أقمار، يقذف منه الركن بجندلة ملمومة، وينظر منه البصر في مرآة مصقولة^(٦).

وبعد هذا التصوير الحسي لأوصاف البغل التي ذكرها الكاتب كسرعه، ورشاقته، وقوة تحمله، واضطلاعه بالأنقال، وتشبيهه بالطير الجارح في جمال هيئته، وسرعة انقضاضه على فريسته، يترك الكاتب المجال للبغل كي يتحدث، فيصوره معتداً بنفسه، وفضائله: "هذه - أعزك الله - نكت من صفاتي، ونبذ من

(١) الصهيل: صوت الخيل (اللسان مادة: سهل)، والنهيق: للحمير (اللسان مادة: نهق)، وإشارة الكاتب لطيفة، فالبغل متولد منها.

(٢) في قوله تعالى (من سورة النحل: آية ٨): (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) واضطلع بحمله: أي قوي عليه ونهض به (اللسان مادة: ضلع).

(٣) البيدق: طائر من الجوارح في حجم الباشق لا يصيد إلا العصافير (اللسان مادة: بدق).

(٤) الشووق: الصقر أو الشاهين. وليلة مدينة في غرب الأندلس، غزيرة المياه، كثيرة الينابيع، مشهورة بأنواع الشجر والثمر. (انظر: الروض المعطار في خبر الأقطار للحميري/ تحقيق: د. إحسان عباس، مكتبة لبنان- بيروت، الطبعة الثانية (١٩٨٤م) ص ٥٠٧).

(٥) الحصافة: الإحكام (اللسان مادة: حصف).

(٦) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٨٩، ٤٨٨.

وصفاتي، وعندني إلى ذلك أدب أتميز به من الجنسية، وأرتفع عن الأعراق الحمارية، فقد قال الأول.

وكيف يجيء البغل يوماً بخصلةٍ تسر وفيه للحمار نصيب^(١)

كذب في هذا الإطلاق، وأسرف في الإغراق، أما إنني أخذت عنه الطهارة والقنوع، لا العجز ولا الخشوع، وتجردت من شعاره، وبرئت من صوته وإنكاره".^(٢)

ويستمر حديثه مشيداً بأصله ومترفعاً عن النقائص التي ينسبها للحمار، ويزعم أنه لم يورث إلا الفضائل فيقول: "وجملة قولي: إن فضائله عندي، ونقائضه عنده، لم تنقلها أعراقي، ولا قبلتها أخلاقي، وستخبر قنري سيراً تحسبه جامداً وهو يمر مر السحاب، ويقطع ظهر الأصحاب، بجد كالهزل، وبذل في ظاهر المنع، كأنك فوق سفينة، أو على ظهر سكينه"^(٣)، وفي هذه ذكرى وبلاغ، أن كان لشحجي^(٤) مساغ! ".^(٥)

ونلاحظ أن الروح المرحمة التي ينبغي أن تتجلى وتظهر في مثل هذه الرسائل، لا تلتبس بصورة واضحة عند الكاتب أبي عبدالله بن أبي الخصال باستثناء رسالته الأخيرة، وذلك يعود إلى سيطرة روح الفقيه المطبوعة على الجد فجاءت رسائله "باردة، قصيرة الرشا"^(٦)

كما أنه أخضعها إلى طريقتة في الكتابة، بالالتكاء على الفنيات الأسلوبية من اقتباس وتضمين، وحل المنظوم، والصور بيانية، والشيات البديعية

(١) البيت لابن رشيد القيرواني يهجو بغلاً.

(٢) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٩٠.

(١) السكينة: ربح خجوج أي سريعة المر (اللسان مادة: سكن).

(٢) شحج البغل والحمار: ردد صوته ورجعه (اللسان مادة: شحج).

(٣) رسائل ابن أبي الخصال: ٤٩٠.

(٤) الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي: ص ١٧٩.

ووصف الأعلم الشنتمري حماراً بأنه محكم الجسم، كريم القوة والحركة حسن الخدمة، يقول: "وثيقُ المفاصل، عتيق النهضة، إذا وُنتِ المراسل، يشفي امتهانه، ويدني من الأمل رديانه"^(١)،^(٢).

ومن الحيوانات الأندلسية التي حظيت بوصف نادر الثعلب، فقد كتب ابن شهيد رسالة يصف فيها الثعلب وصفاً دقيقاً، ويشير إلى ما يتصف به من دهاء وفتك وغدر وقوة، وانتهاز للفرص، فهو "أدهى من عمرو"^(٣)، وأفتك من قاتل حذيفة بن بدر^(٤)، كثير الوقائع في المسلمين، مغرى بإراقة دماء المؤذنين، إذا رأى الفرصة انتهزها، وإن طلبته الكماة أعجزها، غذاؤه حمام ودراج، وعشاؤه بذرخ^(٥)، ودجاج^(٦).

الغزال:

من الحيوانات التي حظيت بوصف نادر أيضاً الغزال، فقد وصفه أبو محمد بن عبد البر وصفاً جميلاً، وصوره ضامر البطن، له عيان ساحرتان، لونهما كلون الخمرة، كأنهما عينا نائم غير مستغرق في نومه، مالت به نشوة الخمرة، وله قرنان كأنهما قلمان، وأذنان كأنهما مقراضان، ووصف هيئته عند أنسه وخوفه، يقول: "ووصل معه الغزال الأهيف، وكان عينية عينا وسان^(٧) مالت به نشوة الرّاح،

(٥) رديانه: لعله مأخوذ من الردين وهو الغزل يفتك إلى قدام، ولعل المقصود هنا اندفاعه إلى قدام (اللسان: مادة ردن).

(٦) الخريدة، مرجع سابق: ج ٣، ص ٤٧٢.

(٧) عمرو بن العاص.

(١) هو حذيفة بن بدر سيد بني فزارة، قتل في حرب داحس والغبراء، والمقصود في النص هنا حفيده عيينه بن حصن بن حذيفة، وهنا المقصود ليس المؤذنين بالنداء المعروف بالصلاة، وإنما هنا يقصد فتك لثعلب بالديوك التي تؤذن قبل طلوع الفجر. (انظر: جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسي، تحقيق: عبدالمعزم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط ٢، ج ١، ٢٠٠٩م، ص ٢٥٦، أيام العرب في الجاهلية، لمحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجبل للطبع والنشر والتوزيع، ط ١، ج ١، ١٩٩٨م، ص ٢٤٩ - ٢٦٤).

(٢) هكذا وردت في الأصل، ولعل الصواب ذراح، وهو كل دويبة أعظم من الذباب شيئاً (اللسان: مادة ذرح).

^١ (التوابع والزوابع، تحقيق بطرس البستاني: ص ١٢٥).

(٣) الوسنان: النائم الذي ليس بمستغرق في نومه (اللسان: مادة وسن).

وثنى عطفه هزة الارتياح، كأنما كحلا سحراً، وأشربا خمراً... وكان قرنيه قلمان،
وكان أذنيه جلمان^(١)، ينصبهما إذا أوجس، ويثنيهما إذا أنس...^(٢).

(٤) جلمان: المقراضان، واحدهما جلم للذي يجز به (اللسان: مادة جلم).

(٥) الذخيرة: ق ٣م ١، ص ٢١٤.

القط:

ومن الحيوانات التي أتى لها وصف رغم ندرته هو القط ، قال ابن صاحب الصلاة: "... إلا أن يطوف بها هر نبيل، ينتمي من القطاط إلى أشرف قبيل، له رأس كجمع الكفّ، وأذنان قد قامتا على صف، ذواتا لطافةٍ ودقّة، وسباطةٍ ورقّة، يقيمها عند التشوّف، ويضجعهما عند التخوّف، ومقلّة كأنها مقتصعةٌ من الزجاج المجرّع، وكأن ناظرها من عيون الباقلاء منتزع، قد استطال الشعر حول أشدّاقه، وفوق أحداقه، كإبر مغروزةٍ على العيون كما تبرّد إطراقها العيون" (١).

وصف ابن صاحب الصلاة قط يتمنى أن يكون عند صاحبه ليمنع الفأر عن قرص كتبه والعبث فيها، وهو وصف طريف أضفى فيه الكاتب الأوصاف المثالية على القط، وحرص على أن يتتبع كل جزئية، ويقف عند كل عضو من أعضائه، فهو له رأس كجمع الكفّ، وأذنان قد قامتا على صفّ، ذواتا لطافةٍ ودقّة، وسبّطة ورقّة... ومقلّة كأنها مقتطعة من الزجاج المجرّع، وكأنه ناظرها من عيون الباقلاء منتزع، قد استطال الشعر حول أشدّاقه، وفوق أحداقه... له ناب كحد المطرد، ولسان كظهر المبرد، وأنف أحنس، وعنق أوقص... يقعى إقعاء الأسد إذا جلس، يثيب وثبة النمر إذا اختلس... " (٢).

ويذكر الكاتب على ماذا يعتمد القط في طعامه وماذا يصطاد: "بل يُدير كيده ، ويقتصرُ على صيده قد تمّرس بأكل الحِنائش والخشاش ، وافتراس الطير في المسارح والأعشاش . يستقبلُ الرّيح بمشمّه ، ويجعل استدلال أنفه أكبر همّه ، ثم يكمنُ للفأر بحيث يجدُ لها عبثًا او يعلم لها لُبًّا أو يسمع لها صئبيًا، أو يلمح من شياطينها رئيًا، فيلصق بطنه بالأرض ، وينطوي بعضه في بعض ، حتى يستوي منه الطول والعرض".

ويمضي الكاتب في خلع أوصافه المثالية على القط كوصفه بالفراسة وحدة النظر وقوة الشمّ والذكاء في تتبع مواطن الفئران ومخابئها، "فإذا تشوّفت الفارة من

(١) رسائل ومقامات أندلسية، تحقيق: الدكتور فوزي محمد عيسى، منشأة المعارف بالإسكندرية، بدون تاريخ، ص ٦٠

(٢) نفسه : ص ٢٧ .

حجرها، وأشرفت بصدرها ونحرها، دبَّ إليها دبيب الضل، وامتد نحوها امتداد
الظل، ووثب في الحين عليها، وجلب الحين إليها".

وهذه الرسالة كما نرى جديدة في موضوعها، طريفة في أوصافها، يغلب
عليها الهزل والدعابة، وهي تؤكد قدرة كاتبها على التفنن في الوصف، ويبدو أن
هذه الرسالة حظيت بإعجاب أصحاب المجاميع لأننا نجد صاحب رسائل
أندلسية > قد أثبتنا كذلك في مجموعه (١).

الطير:

تقد حظي وصف الطيور في هذا الأدب الأندلسي بعلاقة وثيقة بالجانب
البدعي من وصف الطبيعة ولما له من الآثار النفسية والعقلية والروحية في حياة
الكاتب الأندلسي بخاصة، ثم لما لهذه المخلوقات من الأثر الكبير في نفس الإنسان
بعامة، فقد كان يستلهم من مناظر الطيور وأصواتها وأحانها وحركاتها كثيراً من
جوانب الفرح والألم والسعادة والشقاء والتفاؤل والتشاؤم، تلك هي الحياة وذلك هو
الإنسان في السراء والضراء.

وما هذه الطيور بألوانها وأصواتها وأحانها وحركاتها سوى صدى يردد
لنا ما لهؤلاء الأندلسيين من مكنونات أنفسهم وعقولهم في حالتها اليقظة والنام.
ولاشك في أن دارس كتب الحيوان وكتب النبات والأزهار والأشجار وكتب الصيد
وغيرها، تنكشف له أسرار كثيرة وقضايا وظواهر معجبة تتصل بهذا الميدان. ومن
الطيور التي ذُكرت في الرسائل الأدبية في الأندلس الزرزور فقد أثار اهتمام
الكتاب في هذه الحقبة مما دفعهم إلى تسمية من تناولها في الرسائل بالزرزوريات .

الزَّرْزُورِيَّات:

(١) المصدر نفسه : ص ٢٧.

إن رسائل الزرزوريات فيها من الطرافة والتنويع ، نشأ في عصر المرابطين فأول ما وردت عبارة الزرزور كانت في رسالة كتبها أبو الحسين بن سراج إلى أحد رجال عصره يشفع فيها لرجل يعرف بالزرزير (مصغر زرزور) وقد استثار الكاتب اهتمام المرسل إليه فاستفاد من لقب الرجل، ويرمي هذا اللون من الرسائل إلى وصف أصحاب الكدية من الأدباء الأندلسيين في إطار من الفكاهة والسخرية، حيث اتخذ الكتاب من صورة الزرزور^(١) إطاراً يتحدثون فيه عن الكدية وأصحابها، وذلك لما يمتاز به الزرزور من خفة وحركة ونشاط، وقلده بعض معاصريه كأمثال ابن الجد وابن عبدالغفور وأبي عامر الأصيلي و أبي عبد الله بن أبي الخصال^٢.

ويعد ابن سراج^(٣) أول من أثار هذا اللون من الرسائل حين كتب رسالة لبعض أهل عصره، يشفع فيها لرجل يعرف بالزرزير^(٤)، حيث يقول: "شخص من الطيور يُعرف بالزرزير، أقام لدينا أيام التحسير، وزمان التبغ بالشكير، فلما وافى ريشه، ونبت بأفراخه عشوشه، أزمع عنا قطوعاً، وعلى ذلك الأفق اللدن تدلياً ووقوعاً، رجاء أن يلقي في تلك البساتين معمرأ، وعلى تلك الغصون حباً وثمرأ، وأنت بجميل تأتيك، وكرم معاليك، تصنع له هنالك وكوناً، وتستمع من نغم شكره على ذلك أغاريد ولحوناً ودون أن يلتقط في فنائك حبة أو يشترط من مائك غبة

وإذا امرؤ أهدى إليك صنيعه من جاهه فكأنها من ماله"^(٥).

(١) الزرزور: طائر من فصيلة العصافير، يتميز بالنشاط والحركة، مع حجم صغير دقيق (انظر: الحيوان: ج٥، ص٢٢٠، ٢٣٣).

(٢) رسائل ومقامات أندلسية ، ص٢٩

(٣) هو أبو الحسين سراج بن عبدالملك بن سراج، توفي سنة ٥٠٨ هـ (انظر: ترجمته في القلاند: ص٢٠٠، الذخيرة: ق٢م١، ص٨٢١، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى: أبو عبدالله أحمد بن محمد المراكشي، تحقيق: س . كولان، ليفي بروفنسال، ليدن، هولندا، ١٩٤٨م: ج١، ص١١٦)..

(٤) زرزير: تصغير زرزور.

(٥) أبو تمام

(٥) الذخيرة، ق١م٢، ص٣٤٧.

وكما يلاحظ فقد أدار ابن سراج رسالته كلها عن الزر زور وصفاته المختلفة، في إطار مليء بالسخرية والتهكم، حيث رسم له صورة ساخرة مضحكة، واستعار الألفاظ المختلفة الخاصة بالطيور من تحسير وتشكير وريش وفرخ وعش وقطوع، وذلك للتعبير عن حالة ذلك الإنسان الذي وصفه، وجعل صفاته وتصرفاته قريبة من تصرفات الطيور.

لقد تركت رسالة ابن سراج صدى واسعاً في أدب الرسائل في الأندلس، حيث أعجب بها عدد كبير من الكتاب الأندلسيين، فعارضوها برسائل متعددة، وكان في مقدمتهم ابن الجد الذي التقط فكرة الرسالة فأبدع رسالة أدار الوصف فيها على ضروب مختلفة من الهزل والسخرية والتلاعب بالألفاظ، حيث يقول: "لئن سمي بالزرزير، لقد صُعِرَ للتكبير، كما قيل " (حُرَيْقِص) ^(١)، وسِقطُهُ يحرق الحرج، و(دويهية)، وهي تلتهم الأرواح والمهيج ومعلوم أن هذا الطائر الصافر يفوق جميع الطيور في فهم التلقين، وحسن اليقين، فإذا عُلِمَ الكلام لهج بالتسييح، ولم ينطق لسانه بالقبيح، ثم تراه يقوم كالنصيح، ويدعو إلى الخير بلسان فصيح، فمن أحب الاتعاض، لقي منه فُسّاً إياد بعكاظ، أو مال إلى سماع البسيط والنشيد، وجد عنده نُخب الموصلي للرشيد فطوراً بيبيك بأشجى من مرثي أربد^٢، وحيناً يسليك بأحلى من أغاني مَعَبَد، فسبحان من جعله هادياً خطيباً، وشادياً مطرباً مطيباً" ^(٣).

ثم هو يسرف في الحديث عن صفات الزرزير ومناقبه، ويجعلها على صيغة فعيل لتأتي مجانسة للفظ الزرزير، يقول: "ومعلوم أن هذا الطائر الصافر يفوق جميع الطيور في فهم التلقين، وحسن اليقين، فإذا عُلِمَ الكلام لهج بالتسييح، ولم ينطق لسانه بالقبيح، ثم تراه يقوم كالنصيح، ويدعو إلى الخير بلسان فصيح".

(١) فيه إشارة إلى قصة أوردتها القالي في أماليه، وهي أن الأصمعي وقف على غلام من بني أسد اسمه حريقص، فقال له: أما كفى أهلك أن يسموك حرقوصاً حتى حرقوا اسمك؟ إن السقط ليحرق الحرجة (انظر: الأمالي، لأبي علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد، مصر، ١٣٢٢هـ، مطبعة بولاق بعناية

إسماعيل يوسف التونسي، ج ١، ص ٦٦).

^٢ (يعني بها مرثي لبيد في أربد أخيه).

(٢) الذخيرة: م ٢ ص ٢٦٥-٢٦٤.

ثم هو يصور حاله ومتاعبه ليرق له قلب مخاطبه، ويجود عليه، وهو في الرسالة هنا يعبر عن منحي رمزي يصور ضيعة الأديب وضيق عيشه، وضياح صوته الصييح، مما يدفعه إلى التماس رياض أخرى، حتى يغدو أشبه بالمكدين، حيث يقول: "ولما طار ببلاد المغرب، ووقع، وزقا في أكنافها وصقع، وعان ما اتفق فيها هذا العام من عدم الزيتون، في تلك البطون والمتون، أزمع عنها فراراً، ولم يجد بها قراراً، لأن هذا الثمر بهذا الأفق هو قوام معاشه، وملاك انتعاشه... فاستخقه هائج التذكار نحو تلك الأوكار، حيث يكتسي ريشه حريراً، ويحتشي جوفه بريراً، ويحتسي قراحاً نميراً، ويغتدي على رهطه أميراً، فخذه إليك نازلاً لديك، مائلاً بين يديك، يترنم بالثناء، ترثم الذباب في الروضة الغناء، وقد هز قوادم الجناح، لعادة الاستمناح..."^(١).

وكتب أبو محمد بن عبدالغفور رسالتين في موضوع الزرزور، وجه الكلام في واحدة منهما إلى العتاب، وجعل الثانية في معنى الشفاعة^(٢). وله^(٣) من أخرى: إن عجباً بر الوزير بالزعانف والزرراير، وحظره، على قلب يكاد من الشوق إليه يطير، ومن الظماً يشتكى قطعاً^(٤)، ويستطير. وإنه مع عرضه على نار الجفاء غدواً، ونبو مضجع الاحتفاء به هدواً، ووصمة التقصير في جزائه، وممارسة جزع أرزائه واختزائه، إن لهج فبذكره، أو هزج فبأفانين شكره، فكيف به لو ضاحك من خفي بره فرض شؤبوب شنان^(٥)، غمر بذوب عزاليه نوع الإنسان؟

ثم نبداً من شأن الحيوان بزرزور، لا يعرف حقاً من زور، مشهور في الطير بالضرع، كثير العادية قليل الورع، كأنما رهطه عبيد للبلابل، ولغظه وقع

(١) الذخيرة: ق ١٢م، ص ٣٤٩ - ٣٥٠.

(٢) الرسائلان في الذخيرة: ق ١٢م، ص ٣٥١ - ٣٥٦.

(٣) الضمير هنا يعود - على الأرجح - إلى ابن عبد الغفور لا إلى ابن الجد صاحب الرسالة السابقة وعلى ذلك تعد الرسائل التالية حتى آخر الترجمة لابن عبد الغفور .

(٤) القطع : انقطاع ماء البشر في القيظ ، وأقطعت السماء إذا انقطع مطرها .

(٥) الشنان : المراد ، ط م د س : شان .

الحصى المتقابل، وفي غيره من ذوات الريش، النازحة بكل ضراء وعريش، أنجب منه على اللغن^(١)، وأحسن تصريف لسان وذقن كببغاء لا تلعثم في عويص اللغى، وشفنين، يثير اللوعة بالرنين، كأنما عاسرتة عند التلقين الرءاء، وداخله بعد الظفر بها امتراء، فاستظهرها بالنكير، استظهار قين بكير، وبهمة في المصاع بكير، وورق كالقيان، خضبت أرجلها بالعقيان، فوارت لآلىء في الأجياد وزبرجداً أنعلت به حوافر الأجياد، تستتر بورق الغصون، وتشهر بحرق الوجد المصون، ويصقع مشتاقها كالخطيب، ويقع على قاس من الأيك أو رطيب، فيلين لشجوه ويميد، ويكاد يذوب له العميد ورب عصفور صفر لذات سفور، فحكت نقر الزير، وبعثت على العين الدمع الغزير، وبلبل حرّك بلابل واقدات^٢..

وله من رقعة شفاة للزريزير المذكور: "الله قطر باهي بك على الأقطار، واستغنى بخضل ذلك عن صوب القطار، اذكر نعيم الجنان بنضرتة، وسكن نافر الجنان بلألاء زهرته، أي محسب أنيس وطير، ومائح من النعم زخار الحير، وأدأ لقاطع، قطع به مع الفجر الساطع، وبحي خلص من بحر لمجي، فاهتاج طرب الجذل النجي، لهفأ يعثره في البيت على الجني، سبح فقبح للشرب الصبح، وصدح ففدح لهم من نار الغي ما قدح، ولربما نطق بالتوحيد، ويحيد عن سجدة الشكر كل محيد، ويهزج ويسنح وإلى رهطين من الطير يجنح مرهوب الصقع في الديار، ومحبوب السجع بأعالي الأشجار، يمتع بثنى أفانين، ويخجل البلابل والشفانين"^٣.

وفي فصل من رسالته: "حتى أشدت منه الفقار، واسود فرعة والمنقار، ولم يكن به إلى العول افتقار فنهض وكسب، وأعرب عن نحيزته وانتسب، وأخذ بالطباع في التوليد، وصدح غرداً ببيت الوليد، إلا ما غير منه وأحال، ولا يعرف الممكن ولا المحال:

لك الله عُشّاً غصّاً ليلاً بأفرخ بعلياء فرع الأثلة المتهدّل

(٦) اللغن . من معانيه البعيدة الكلام بكلام الغير قال في اللسان "جئت بلغن غيرك إذا أنكرت ما تكلم من اللغة،

اللسان مادة لغن .

^٢ الذخيرة : م ٢ ، ص ٢٦٧ .

^٣ نفسه ، ص ٢٦٨ .

^٤ (يعني البحتري ، ولكن البيت التالي لم يرد في ديوانه ، لأن الكاتب ربما غير فيه ، حسب قوله .

فيا للعجب العجيب ، ولسان هذا الزرزور النجيب ، أنطقه فضلُ الوزير
بلسان، نَقَلَهُ من نوع الزرازير إلى نوع الإنسان ، فشكر وشعر ، حتى غلا مِرْجُلُ
أشْرِهِ واستعر ، وأخذ عن وكنه في الرحيل ، وباع مُبرماً من العيش بسحيل ،
فرشق السماح من جسمه بسهم ، وسبق الرياح عن عزمه بمثل الوهم ، فما احتلَّ
من الجانب الغربي شرفاً ، حتى اعتقد إلى الجانب المرضيَّ مُنصرفاً ، وشغِلَ عن
النظر في عطفه ، بالنظر في أسرار كَفْيِهِ ، ياله من عازمٍ ، خوافي عادتْ
باللائمة على القوادم ، يتميَّ لغرغرتة بالندم ، أن يُخْضَبَ من أوداجه بدم ، لأنه
سقط من شجر زيتونه ، بعقم بطونه ، في هذا العام ومنونه على خالياتٍ من المير ،
موحشاتٍ مثل جوفِ العير ...^١ .

وممن دخل حلبة المعارضة في هذا الموضوع أبو بكر عبدالعزيز
البطليوسي الذي أقام رسالته على الشفاعة لهذا الزرزور، واستعرض براعته
الأسلوبية في ذلك، حيث كتب رسالة حملها إلى صديقه بمنقاره يقول: "أخذ الكتاب
بمنقار، وصقَّ من ريش الجناحين سروراً، وطار".

وقد أوصى البطليوسي صديقه بأن يحسن وفادته ويكرمه وأن "تبسط له في
بساتينك، وتفرش له من وردك وياسمينك، حتى تلبس من أغاريد الحل
المنشورة"^(٢) .

ومن أولئك الذين دخلوا حلبة المعارضة أيضاً أبو عامر بن أرقم^(٣) الذي
كتب رسالة إلى أحد أصدقائه في معنى الشفاعة، ولم يرد فيها سوى إظهار براعة
الأسلوب على نهج وصفي متتابع، يقول في شأن الزرزور "حيوان يصفر كل

^١ (الذخيرة ، م ٢ ، ص ٢٦٨-٢٦٩ .

(١) الذخيرة: ق ٢٢٢ ، ص ٧٦٠ .

(٢) هو أبو عامر بن عبد العزيز بن محمد بن أرقم الوادياشي، من أهل المرية، كان والده الوزير الكاتب أبو الأصبغ
مبرزاً في الكتابة فنشأ ولده كذلك (انظر: القلند: ص ١٣٢، الذخيرة، ق ١٣١، ص ٤٠٣، الخريدة: ج ٣، ص ٤١٦ .

أوان، ويسفر ببين الإخوان، رقيق الحاشية، يعتمد على كرواء،^(١). ويستمع
بخدواء،^(٢). وينظر من عين كأنها عين، ويلفظ بمنقار كأنه من قارئ"^(٣).
وكان ابن المرخي^٤ (ت ٥٣٦) أحد من اجتذبه هذا الموضوع ، وقد عالجه
بأسلوبه ، وأضفى عليه من روحه ، غلبت عليه روح الدعابة والهزل وهو يصف
ذلك الشخص الملقب بالزرزور ويشاكل بينه وبين الطائر المعروف بهذا الاسم ،
ويقارن بينهما فيقول : " وهذا صنف من الطير تقنعه البذور ، ويكفيه المطعم
المنزور ، وهذا المتسمّى باسمه لا تشبعه الجزور ، ولا ينفع غلته سيل
مهمزور"^(٥).

الإوزة:

ومن الطيور التي تناولها الكتاب بالوصف الإوزة فيصفها ابن شهيد أنها
بيضاء شهلاء ويذكر صفاتها : " وكانت بالبركة إوزة بيضاء شهلاء في مثل
جثمان النعامة ، كأنما ذر عليها الكافور ، أو لبست غلالة من دمقس الحرير لم أر
أخف من رأسها حركة ، ولا أحسن للماء في ظهرها صبا، تثنى سالفتها وتكسر
حذقتها ، وتلولب قمحوتها ، فترى الحسن مستعاراً منها ، والشكل مأخوذاً عنها
٦ "

ويذكر صفات هذه الإوزة عدة : أنها جميلة عريضة وطويلة واستقامة
جناحها وطول عنقها فيقول : " فقال ابو عامر : أيتها الإوزة الجميلة ، العريضة

(١) الكرواء: الساق الدقيقة (اللسان: مادة كرا).

(٢) الخدواء: الأذن المسترخية (اللسان: مادة خذا).

(٣) النخيرة: ٣٥ م ١، ص ٤٠٥.

(٤) ابو بكر محمد بن علي بن محمد بن عبد الملك بن عبدالعزيز اللخمي الكاتب من أشبيلية ويعرف بابن المرخي -
بخاء معجمة بعد الراء-.

(٥) رسائل ومقامات أندلسية : ص ٢٩

^١ التوابع والزوابع لأبن شهيد ، تحقيق بطرس البستاني ، ص ١٥٠.

الطويلة ، أحسن بجمال حدقتيك واعتدال منكبيك ، واستقامة جناحيك ، وطول جيدك ، وصغر رأسك مقابلة الضيف بمثل هذا الكلام^(١) .

ويصف خفة حركتها وهي تسبح في الماء : " فدخلها العجب من كلامي ، ثم ترفعت وقد اعترتها خفة شديدة في مائها ، فمرة سابحة ومرة طائرة ، تنغمس هنا وتخرج هناك قد تقبب جناحها ، وانتصب ذنابها ، وهي تطرب تطريب السرور ، وهذا الفعل معروف من الإوز عند الفرح والمرح ... ثم سكنت وأقامت عنقها وعرضت صدرها ، وعملت بمجدافيهها ، واستقبلتنا جائئة كصدر المركب"^(٢) .

البيغاء:

ومن الطير التي حظيت بالوصف عند كتاب الأندلس البيغاء ومن ذلك ما ورد لابن عبدالغفور في وصف البيغاء قوله: "كبيغا لا تلعثم في عويص اللعوى، وشفنين ، يثير اللوعة بالرنين، كأنما عاسرته عند التلقين الرءاء، وداخله بعد الظفر بها امترءاء، فاستظهرها بالنكير، استظهار قين بكبر، وبهمه في المصاع بكيرير، وورق كالقيان، خضبت أرجلها بالبعيان، فوارت لآلى في الأجياد، وزبرجداً أنعلت به حوافر الأجياد، تستر بورق الغصون، وتشهر بحرق الوجد المصون، ويصفع مشتاقتها كالخطيب، ويقع على قاس من الأيك ورطيب، فيلين لشجوه ويميد، ويكاد يذوب^(٣) له العميد...

العصفور:

ومن الطير التي حظيت بالوصف العصفور فوصفها ابن عبدالغفور أيضاً في رسالته فقال: "رب عصفور، صفر لذات سفور، فحككت نقر الزير، وبعثت العين على الدمع الغزير، وبلبل حرك بلابل واقدات، وشك القلوب بمعامل

^١ نفسه .

(١) الذخيرة ق ٣ : ص ٤٥ .

(٢) ط : يدب .

نافذات^(١)، وكائن من غرد، حران قلب أو صرد، يفوت مدى العد، ويملاً ديار معد، ولو تقصينا لما أحصينا، ونضب عد الكلام على ثرارته، وعصب ريق الأقلام على غزارته، فلتسهب بما تشهد لفضله رجاح الألباب، ولتغرب من مدرك ثمره بلباب اللباب، على سر الأضراب والأعاريض، على أني قد تحوميت وما نوغيت ، أي كأني من الحقارة ألغيت، ولا نعيم لعين الوهم^(٢) وقد وضحت شاكلة^(٣) اليقين للمتوهم، وسأطفل^(٤) على السمع ، وأبذل مذخور الدمع ، فأبث شجوناً، وأنبذ نبذ النواة مجوناً، فلا أرق البهارة، ولا أخفض الجهارة^(٥) ولا أصف أزاهر ، ولا أنعت القمر الزاهر، بل أندب ربوعاً، وأحرز العمر أسبوعاً... " .^(٦)

البرغوث والبعوض:

ولم تمنع الكتاب الطبيعة الأندلسية الجميلة بأزهارها وأطيافها ورياضها من أن يصفوا الحشرات الصغيرة التي يكثر أذاها وضررها للإنسان، ولا غرو في ذلك فهم يرون فيها سراً من عجائب الدنيا، ودليلاً على عظم قدرة الله، ومؤشراً على ضعف الإنسان أمام ضعف مخلوقات الله تعالى ، وهي حشرات صغيرة في شكلها إلا أنها مؤذية في أشدها ومقلقة للإنسان ومتعبة له وكأنها عدو يطارده في كل وقت وكل حين .

البرغوث :

ومن هذا اللون من الرسائل ما كتبه ابن شهيد في وصف البرغوث، حيث وقف عند لونه وقوته وحجمه، فهو أسود اللون، بحجم الحبة السوداء، أو نقطة المداد، ليس بالضعيف والفتور، ولا بالجبان الرذل، يقول: "أسود زنجي، وأهليّ"

(٣) نافذات : سقطت في م س .

(١) نعيم عين : كرامتها وقرتها ، س ط : نقيم ، م د : نعيم .

(٢) م د : شاغلة ، ط : شاغلت .

(٣) يعي : (وسأطفل) .

(٤) البهارة : عظم الجسم ، وأرق البهارة نسبها إلى الرقة (أو إلى الدقة) ، والجهارة : ارتفاع الصوت أو حسن المنظر .

(٥) الذخيرة ق ٢٣ : ص ٥٤٨ .

وحشيّ، ليس بوان^(١) ولا زُميل^(٢)، وكأنه جزء لا يتجزأ من ليل أو شونيزة^(٣) أو ثقتها عزيزة، أو نقطة مداد، أو سويداء قلب فُراد^(٤).

ويتحدث عن حركته وإيذائه للناس وإزعاجه لهم، ويسجل بعض طباع هذا الحيوان الحقير، ويكشف عن مواطن قوته وخصائص ضعفه، "فشربُهُ عب، ومشيه وثب، يكمن نهاره، ويسير ليله، يُدارك بطعن مؤلم، ويستحلُّ دم كل كافر ومُسلم، مُساوِرٌ للأساورة يجر ذيله على الجابرة، يتكفر بأرفع الثياب، يهتك ستر كلّ حجاب، ولا يحفل ببواب، يردُّ مناهل العيش العذبة، ويصل إلى الأحراج الرطبة لا يمنع منه أمير ولا ينفع فيه غيرة غيور، وهو أحقر كلّ حقير، شرُّه مَبْثُوث، وعهده منكوث، كفى بهذا نقصاً للإنسان، ودلالةً على قدرة الرحمن..."^(٥).

لقد رسم ابن شهيد صورة طريقة لطيفة ضاحكة، قصد من ورائها إثارة المداعبة والتفكه، وينبع ذلك من جعله هذا الكائن الحقير التافه مادة للفن، وألبسه ثوباً من الجدية والوقار.

(١) الونا: الضعف والفتور والكلال (اللسان: مادة وني).

(٢) الزُميل: الضعيف الجبان الرذل (اللسان: مادة زمل).

(٣) الشونيزة: الحبة السوداء (اللسان: مادة شنز).

(٤) رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد، ص ١٢٥

(٥) نفسه، ص ١٢٦..

البعوض :

وذكرها ابن شهيد بقوله : " البعوضة مُليكة، لا جيش لها سواها ، تحقرها عين من يراها تمشي إلى الملك يندبها، وتضرب في بئحة داره يطبلها، تؤذيه بإقبالها، وتعرفه بإراقة دمه مالها، فتعجز كفه، وترغم أنفه، وتضرج خده، وتقري لحمه وجلده . زمجرتها تسليماً، ورُمحها خرطومها، نذل صعبك إن كنت ذا قوة وعزم ، وتسفك دمك وإن كنت ذا حلف وعسكر ضخم، تنقض العزائم وهي منقوضة، وتعجز القوي وهي بعوضة، ليرينا الله عجائب قدرته، وضعفنا عن أضعف خليقته " .

يصف ابن شهيد في هذا النص بعوضة و يبالغ في وصفها، مُعتمداً على عنصر التّفخيم و التّهويل، حتى وكأنه يصف حيواناً مفترساً، أو غولاً مرعباً، فهي في نظره ملكة عظيمة الشأن، تكون جيشاً بمفردها، مع احتقار الأعين لها، لعله يشير هنا إلى قول الشاعر:

لا تحقرن صغيراً في مخاصمة إن البعوضة تُدمي مقلة الأسد

وقد لجأ ابن شهيد إلى الألفاظ الجزلة والتراكيب القوية، والتي تتناسب مع تفخيمه شأن البعوضة وتهويل أمرها، مما ساعده على إيصال فكرته في أحسن صورة، التزم فيها السجع التزاماً كاملاً من أولها إلى آخرها.

المبحث الثاني
الطبيعة الصامتة

الطبيعة الصامتة : كل ما تحتويه الأرض من جبال وثمار وأنهار وأودية
ومساجد ومنازل وقصور وغيرها.

ولقد وصف الكتّاب الأندلسيون من طبيعتهم الصامتة الرّبيعيات والرّوضيّات
، والزّهريّات والثمريّات ، ووصف مطر بعد قحط ، كما وصفوا الطبيعة العامّة
كالليل والنهار والقمر والنجوم والرعد والبرق وما إليها :

ولعل أهم معالم الطبيعة الصامتة الجبال . وحظيت في الشعر العربي بمكانة
بارزة ، وكذا الشعر الأندلسي الذي يعد جزءاً منه ، ولعل قصيدة ابن خفاجة في
وصف الجبل من أجمل القصائد في ذلك التي منها قوله :

وأرعن^(١) طمّاح الذّوابية ، باذخ يُطاولُ أعنانَ السماءِ بغاربِ
يسدُّ مهبَّ الرّيح من كلّ جهةٍ ويزحمُ ليلاً شبهةً بالمناكبِ
وقورٍ على ظهر الفلاة ، كأنه طوالَ الليالي مُفكِّراً بالعواقبِ
يلوث^(٢) عليه الغيم سُدّ عمائم لها من وميض البرق حُمراً نوائب^(٣)

ولقد وصف ابن الخطيب جبال الأندلس حينما كان منفياً بسلا في رسالته
المعروفة باسم (مفاخرات مالقة وسلا) فوصف ابن الخطيب جمال جبال بلاده
وبالتحديد مدينته مالقة فيقول: " فأما المنعة ، فلمالقة ، حرسها الله ، فضل الارتفاع
ومزية الامتناع أما قصبتها ، فاقتعدت الجبل كرسياً ' ورفعها الله مكاناً علياً ..
وسما بسنام الجبل المبارك منارها ، وقربت أبراجها ، وصوعدت أدراجها ،
وحصنت أبوابها ، وعزز جنابها ، ودار ببلدها السور والجسور ، والخندق
المحفور" ^(٤).

ونرى في وصف ابن الخطيب فنذكر جبالها و مالها من جمال وفضل
ارتفاعها عن الأرض جعلها حصناً حصيناً لهذا الارتفاع من أهمية .

(١) الأرعن : الجبل الشديد النتوء ، والبادخ العالي ، والطامح والطمّاح : المرتفع ، والغارب : الكاهل ، وأعلى كل
شيء.

(٢) يلوّث : يلف . والذوائب : جمع ذائبة ، وهي الناصية .

(٣) ديوان ابن خفاجة ، ٢١٥ ، ٢١٧ .

(٤) ابن الخطيب مفاخرات مالقة وسلا ، ص ٥٧ .

ولا يقف الي هذا الحد بوصفه حتى يضعنا أمام مكان يرتسم بأبهى حل
الجنة بما يحمله من معاني الجمال والهدوء الذي لا يضاهيه في الكون شئ فاستحال
في وصفه شاعراً يرسم بالكلمات ويلون بأحاسيسه ما وقعت عليه عيناه، من جمال
جبال مدينته الجميلة فيقول : " خصّ الله مالقة بما افترق في سواها ، ونشر بها
المحاسن التي طواها ، إذ جمعت بين رمث الرمال وخصب الجبال ..، والصيد
العميم الانتفاع ، جبالها لوز وتين ، وسهلها قصور وبساتين .."^(١) . وهنا ابن
الخطيب ذكر أهم جبال بلاده وهي لوز وتين وما خصها الله من أهمية وجمال
منظر .

(٢) نفسه ، ص ٦٠ .

الأودية:

ومثلما حظيت الجبال بالوصف كذلك الأودية فكتب بعض كبراء^١ الأندلس إلى إخوانه: "كتابي هذا من وادي الزيتون ونحن فيه مختلفون ببقعة اكتست من السندس الأخضر وتحلت بأنواع الزهر وتخيلت بأنهار تتخللها وأشجار تظللها تحجب أدواحها الشمس لالتفافها وتأذن للنسيم فيميل من أعطافها وما شئت من محاسن تروق وتعجب وأطيّار تتجاوب بألحان تلهي وتطرب في مثلها يعود الزمان كله صبا وتجري الحياة على الأمل والمنى وأنا فيها أبقاكم الله سبحانه بحال من طاب غذاؤه وحسن استمراؤه وصحا من جنون العقار واستراح من مضض الخمار وزايلته وسأوسه وخلصت من الخباط هو أجسه ثم ذكر كلاما من هذا النمط في وصف الخمار والدعاء إلى العقار^(٢)". فهو هنا يصف الوادي وجمال منظره لما به من أنهار وأشجار وبه أنواع الزهر والأطيّار التي تطرب السامع فهو لوحة فنية أبدعها الخالق .

وراجعة أبو الفضل بن حسداي برقعة قال في صدرها : " ... كتابك الذي أنفذته من معرسك بوادي الزيتون ، ووقفنا على ما لقنت في أوصافه من حجة المفتون ، وإعجابك في بالتفاف شجره ودوحاته ، واهتزازك بلطيف بواكره روحاته ، وغرورك به وهوحول تلاعه ، مورودة هضابه وأجراعه ، وكل المشارب ما خلا ذميم ، وماؤه الدهر خصر والمياه حميم ، وتلك عادة تلونك ، وسجته تخضر منك ..."^٣ . ونلاحظ أبا الفضل راجع الكاتب في رسالته في وصف الوادي وماله من صورة جمالية .

ومن الأمثلة أيضاً على وصف الأودية وصف ابن أبي الخصال لوادي الحمّة^(٤) بما يضمه من أشجار ورمال: "فياله من واد جلّت أوصافه، وتعذّر على القلم إنصافه، سلب العذارى وسواس حليها صمصافه، وأصفق بالإجماع على

^١ هكذا ورد في النسخ لم يذكر اسمه

(١) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج ١ ص ١٩٣

(٢) نفسه ، ص ١٩٣ .

(٣) وادي الحمّة: يقع في الجنوب الغربي من غرناطة. (الروض المعطار، محمد بن عبد المنعم الجيميري المحقق :

إحسان عباس الناشر : مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - ط٢ ، ١٩٨٤ ، ص: ٧٩).

سؤدهه خلافه^(١)، فنزلنا عن الأكوار نتدافع ونتدارى، في رملٍ كأوراك العذارى، قد حجبته كل شابكة الغصون، ودرأت الشمس عن ظله المصون؛ فلم أتمالك أن أصقت أحشائي ببرده، والتحفت ملياً ببرده...^(٢).

الأنهار:

ولأن الأنهار من مقومات الطبيعة في الأندلس فقد وقف عليها بعض الكتاب ، وذلك أنه مما حبا الله به بلاد الأندلس، تلك الأنهار الوفيرة المياه، التي أحيت جنبات الأندلس، ومدت رياضها بالخضرة الساحرة والجمال، وقد كانت أكبر مدن الأندلس تقع على ضفاف هذه الأنهار، مثل: أشبيلية وغرناطة، وقرطبة، وتتميز الأندلس بكثرة أنهارها التي تشق مدنها مثل وادي^(٣) تاجة ووادي آنة ووادي لكة ووادي سليط ، فكان طبيعياً أن يهتم أمراء الأندلس بإقامة القناطر على هذه الوديان^(٤).

ولقد ابداع الفتح بن خاقان في وصف الأنهار حيث قال : " وهو موضع مستبدع كأن الحسن فيه مودع ، ما شئت من نهر ينساب انسياب الأرقام ، ورد من كما وشت البرد يد راقم ، وزهرٌ يحسد رياه ، ويتمنى الصبح أن سم به محياه"^(٥). وقال الوزير الغساني : " عن يمين المار من جانبي الوادي غياض وأشجار ملتفة ، وهي ممنوعة محمية بقصد اصطياد الطاغية وقنصه ، أفلا يقدر أحد على الدخول إليها"^(٦).

(٣) الخلاف: شجر يشبه الصفصاف.

(٤) رسائل ابن أبي الخصال ، تأليف أبي عبدالله ابن أبي الخصال ، تحقيق محمد رضوان الداية

(١) الوادي: في لغة عامة الأندلس هو النهر .

(٢) العمارة المدنية في الأندلس : السيد عبدالعزيز سالم ، دائرة معارف الشعب عدد ٦٤ ، ص ١٤٨-١٤٩.

(١) نفع الطيب للمقري: ص ١٧٨ ، نفع الطيب : ج ٢ ص ١٩٣

(٢) رحلة الوزير في افتكاك الأسير ص ٦٥.

وقال أيضاً في وصف أحد أنهار الأندلس: " وهذا الوادي بهي المنظر ،
رحب الفناء ، فسيح الأرجاء ، عليه من البناءات والقرى والأرحية شيء كثير ،
وعليه من المزارع ما لا يحصى ، ويصاد بهذا الوادي السمك ،.." (١)

وقال ابن حسداي في وصف نهراً بسرقسطة: " وفاق حسنه الروض
الأنضر ، والزوارق قد حفت به ، والتقت بجوانبه ، ونغمات الأوتار تحبس السائر
عن عدوه ، وتخرس الطائر المُفصح بشدوه ، والسمك تُثيرها المكائد ، وتغوص
إليها المصائد فيبدو منها للعين ، قضبان دُرٍّ أو سبائك لُجين ، والراح لا يُطمس لها
لمع ، ولا يُبخس منها بصر ولا سمع ، والدَّهرُ قد غَضَّتْ صروفه ، واقتصَّ من
مُنكره معروفه " (٢)

فجعل الكتاب الأندلسيون يتخذون من ضفافها أماكن للهو والمتعة، ومن
صفحاتها بساطاً تجرى عليه زوارقهم، وهم مع كل هذا يغنون ويتربون وتجد
قرائحهم شعراً عذباً أذاذا.

كانت المائيات من المشاهد التي وقف أمامها الأندلسيون ناقلين أوصافها نقلاً
مباشراً أو نقلاً مفعماً بمشاعر نفسية من ذلك
قول ابن شهيد يصف ماءً: " أزرق كعين السُّور ، صافٍ كقضيب البلور ، انخب
من الفرات، واستعمل بعد البيات ، فجاءَ كلسان الشمعة ، في صفاء الدمعة."
ويشبهه بالصباح والقمر وانصبابة كانصباب الكوكب من السماء
فيقول: "انظره يا سيدي كأنه عصير صباح ، أو ذوب قمر ليّاح ، له في إنائه ،
انصباب الكوكب من سمائه ، العين حانوته ورق ، يرفع عنك فتردى ، ويصدعُ
به قلبك فتحيا." (٣)

فالكاتب يشبه الماء بعصير الصباح أو بالقمر وانصباب الكوكب من السماء
من صفائه وبريقه .

(٣) رحلة الوزير في افتكاك الأسير ص ٦٦.

(٢) القلائد ، ص ٥٥٠.

(١) الذخيرة ، ق ١م ، ص ٢٧٦.

وبسبب تطور الحضارة، أدخل الأندلسيون مياه الأنهار إلى قصورهم لتجري البرك الفخمة في أفنيئها من خلال أفواه التماثيل، فصار ذلك منظر أشعل خيال الشعراء، فتغنوا شعراً عذباً رقيقاً في وصف البرك والتماثيل والقصور. إضافة إلى تلك الأنهار تناثرت بأرض الأندلس أودية ممرعة خضراء، كانت تمتد على ضفاف الأنهار، اتخذ بعضهم منها سكناً، فتكونت بذلك مدن كانت آية في الحسن وجمال الطبيعة.

وصف الغيث :

لقد جعل الكتاب والشعراء الأندلسيون الغيث مجالاً لإظهار براعتهم في الوصف وقدرتهم على التصوير والإبداع، فقد صوره الشعراء تصويراً صريحاً لهيئته لسوداء حال الإمطار.

فمن ذلك رسالة أبي بكر بن عبدالعزيز التي يصف فيها غيثاً "إثر جذب حين استهلته مع الصباح غمامة محملة بالمطر"^(١).
فيصف مشهد السحابة بقوله: "تمشي من الثقل هوناً، وتستدعي من الرياح عوناً...".

وظفقت الغمامة تدر رويداً رويداً حتى " انخرق جيبتها، وانبفق سيبها، فصار الطل وبلا وعاد الخيط حبلاً....".

ويتألق أيضاً في وصف صورة وهو يصف انهمار المطر فيقول: "فالسحاب يتعلق، والبرق يتألق، والرعد يرتجس، والقطر ينبجس، من غروب هامة، وجفون دامعة، تبكي بلا حزن وتجري على وزن، والنقط تتوافى طباقاً، وتتبارى سباقاً، فيردتف السابق بالمصلي، ويتصل التابع بالمولى"^(٢).

(٢) رسائل ومقامات أندلسية ص ٢٥.

(١) المصدر نفسه الرسائل ٧-١٥-٢٣.

ويأتي في تلك اللوحة التصويرية حيث نشاهد الأرض بعد أن أخذت ريها من الأرض ،وقضت منه وطرها فيقول : "وقد أخذت زخارفها ، ونشرت مطارفها، وتجلت رباها للعيان ، وتزينت بزى القيان " .

ويصف أثر هذا الغيث الذي جاء إثر جذب فبعث الحياة في المخلوقات فيقول : "وبسط الشجيع بالإنفاق ، وبعث صفوة الإرفاق ، وهان على المُمْلِق طول السنين ، وعول البنين ، وأصبح الزمان جديداً ، ورأى الزارع سروراً لتمام أمله، ونجاح عمله ، ورعت الشاء ، وكثرت النعم والآلاء ، وزادت الوحش في عددها ، وعادت الطير إلى شدوها " .

وقد تناول أبو مروان بن زكريا أيضاً موضوع الغيث ولكن في إطار قصصي، وذلك في الرسالة التي وجهها إلى أبي الخصال ويمهد أبو مروان لموضوعه حيث فارق صاحبه تلك الليلة : "والجو أكلف ، والسحاب أوظف ، ومحایل المطر بادية ، ورعود الغمام حادية " .

ويصف كيف جد في السير حتى قطع وادي القلعة : " وقد اترع كل مسيل وتلعة " .

ويكمل وصفه للغيث حين عجزت المطى عن السير والمطر ينهمر بغزارة طرق منزلاً فأستقبله فتى : " محض البشر ، طلق المحيا ، عليه زي البوادي وعزتها ، وكرم نفوسها وسجيتها " .

وقد أخذ في الوصف بعد أن هدأ الغيث ولكن السماء أخذت تمطر مرة أخرى ، فطفق يغذ السيل إلى أن وصل وادي المليحة فيقول : "وقد تدانت جباله السود ، واشتبكت حباله القود، ومذاق الودق تنسرب ، وشجاع البرق يضطرب ، ومدافع السيل تختطب ، وقد بلغ الزبى ، وصير من كئيبانه الرُّبى " .

ويستمر الكاتب بالوصف ما حل بهم تلك الليلة من ضيق فلا يجد له مخرج إلا أن يأوي إلى ركن الجبل ، ويعتصم بكهف ضيق إلى أجنه ورفاقه الماء ، وظلوا كذلك دون طعام إلى أن أفلح المطر بعد أن مضى من الليل هزيع ، وحان

للقمر طلوع ، وباتوا ليلتهم بوادٍ "قد أوثمت ثمره ، والتف شجره " فلما أصبح الصباح واصل رحلته حتى بلغ منزله (١).

ويصف أبو مروان بن أبي الخصال (٢) هطول المطر بعد أن عانت الأرض من الجذب ، وبعد أن لبست الأرض حللها القشبية وفاح عرارها ونمت أزهارها ، أصابها سيل جارف وافي عبابه يلتطم : " وأقبلت غوارب الموت ترتكم ، وتدارك حتى مجّته ، الأشراج ، وضافت عن تدافعه الفجاج ، وما راعنا إلا السّرج طافياً في أذيه والعصم غرق فب آتيه " (٣).

ويصف ما أحدثه السيل من أضرب بالغة في المدينة حيث تهدمت البيوت على سكانها ، وغرقت الأرض فيما يشبه الطوفان " فأنت إن أطلعت لم تر إلا رسوماً ، وربّعا بالخراب موسماً ، تنكره بعد العرفان ، وتستعظم فيه حادثة الزمان ، فكم شهيد تحت ذلك الهدم ، وملحود بين ذلك الردم ، قد ذاق الموت قبل ذوقه ، وخرّاً عليه السقف من فوقه ، ففي كل دار رنة ، وعند كل جدار زفرة و أنة ، ونحن ننتظر الفرج بالصبر ، ونستدفع بالدعاء أذى القطر " (٤).

وقال في وصف الغيث : " والغمام قد أنجلت عزاليه (٥) ، وانثرت شهب لآليه ، برد كالثغور ، لم تقه الأثواب عن الظهور ... " (٦)

ولأبي عمر ابن الباجي رسالة في وصف الغيث قال فيها : " وإنه كان من امتسالك السّقيا ، وتوقف الحيا ، ما ريع به الأمن ، واستطير به الساكن ، ورجفت به الأكباد فزعاً ، وذهلت الأبواب جزعاً ، وأذكت دكاء حرّها ، ومنعت السماء درّها ، واكتست الرياض عُبرةً بعد خُصرةٍ ، ولبست شحوباً بعد نَضرةٍ ، وكادت برود الرياض تُطوى ، ومدد نعم الله تُزوى ، ثم نشرَ تعالى رحمته ، وبسطَ نعمته ،

(١) رسائل ومقامات أندلسية ص ٩٨ .

(٢) الرسالة رقم ٤ ص رسائل أندلسية ص ٦٦ .

(٣) رسائل ومقامات أندلسية ص ٢٧ .

(٤) نفسه ، ص ٢٧ .

(٥) العزالي : جمع العزلاء : وهو مصب الماء من اسفل القرية ، ويستعار للسحب . فيشبهه إتساع المطر واندفاعه بالذي يخرج من فم المزادة .

(٦) مقامات ورسائل أندلسية ص ٧٦ .

وأتاح مِنتَهُ ، وأزاح محنته ، فبعث الرياح لواقح ، وأرسل الغمام سوافح ، بماءٍ دَفَقٍ ، ورواء غدقٍ ، من سماءٍ طبقٍ ، استهلَّ جفنها فدمع ، وسمح دمعها فهمع ، وصاب وبلها فنقع ، فاستوفت الأرض رياءً ، واستكملت من نباتها أاثاءً ورنياً ، فزينة الأرض مشهورة ، وحلَّةُ الزهر منشورة ، ومئةُ الرب موفورة ، والقلوب ناعمة بعد بؤسها ، والوجوه ضاحكة بعد عبوسها ، وأثار الجزع محوَّةً ، وسور الشكر متلوَّةٌ ... " ^١

ولأبي القاسم بن الجدِّ رسالة في صفة مطر بعد قحط قال فيها : " ولما ساءت بتنبُّط الغيث الظنون ، وانقبض بتبسُّط الشك اليقين ، واسترابت حياض الوهاد ، بعهود العهاد ، وتأهبت رياضُ النَّجاد ، لبرود الحداد ، واكتحلت أجفان الأزهار ، بإثمد النقع المثار ، وتعطلت أجياد الأنوار ، من حُلِّيِّ الديمة المدرار ، أرسل الله تعالى بين يدي رحمةٍ ريحاً بليلة الجناح ، مخيلة النجاح ، سريعة الإلقاح ، فنظمت عقود السحاب ، نَظَمَ السَّحاب ، وأحكمت برود الغمام ، رائقة الأعلام ، وحين ضربت تلك المخيلة في الأفق قبابها ، ومدَّتْ على الأرض أطنابها ، لم تلبث أن انتهك رواقها ، وشيكاً نطاقها ، وانبرت مدامعها تبكي بأجفان المشتاق ، غداة الفراق ، وتحكي بنان الكرام ، عند أريحية المُدام ، فاستغربت الرياضُ ضحكاً ببيكائها ، واهتزت رُفاتُ النبات طرباً لتغريد مُكائنها ، فكأنَّ صنعاء قد نَشَرَتْ على بسيطها بساطاً مُفَوِّقاً ، وأهدت إليها من زخارف بزَّها ومطارف وشيها أطفافاً وتحفاً ، وخیل للعيون أن زواهر النجوم ، قد طلعت من مواقع التخوم ، ومباسم الحسان ، قد وصلت بافترار الغيطان ، فيا برُدْ موقعها على القلوب والأكباد.. " ^٢

ولقد عارض الرسالتين السابقتين أبو القاسم محمد بن عبدالغفور برقعة قال فيها : " وإنَّ أحقَّ النعم بشكرٍ لا تُنْضَب مدوده ، وحمدٍ تتجاوز حدَّ المعهود حدوده ، نعمى أحيت بالسُّقيا أرضاً مواتاً ، وأنشرت بدرِّ الحيا أملاً رفاتاً ، وقد غبط طيرُ الماء ضباب اليهماء ، وحجب كاسف الرجاء نيِّرات النعماء ، وشابت مفارق الرياض ، وغاضت مُفعماتُ الحياض ، واقشعرتِ الربا ، وحل نبتُ الحاجر عقْد

^١ الذخيرة م ٢ ، ص ١٥٥ .
^٢ نفسه ص ٢٢٣ .

الحُبا ، وباتت أزهار الغيطان ، عليّات الأَجفان ، تستسقي نجوم السماء ، وتتوسَّل
بالشَّبّه إلى ذوات الأنواء ، فعندما أمست البسيطة على شفا، وأجبلَ المحتقر ولم يجد
مُرتشفاً ، أرسلَ الله تلك النعمة ، بين يدي الرحمة ، ريحاً لينة هُبوب النسيم ،
فيالروض الهشيم ، شديدة حفز الغمام ، لتدارك ما في الكمائم ، فنسجت بإذنه
ملاءها ، ورمت أمراسها ودلاءها ، فلما لمت قزعاها ، ووصلت بقدرة الخلاق
قطعاها ، سفحت عيون تلك النجوم ، بمكفهر الغيوم ، رحمة لعليل النبات ، ورقّة
لأليل المُهجات ، فُمنم وشي التلاع .."¹

¹ (نفسه ص ٢٦٠-٢٦١ .

الأشجار:

احتلَّ فصل الربيع منزلة رفيعة في أدب الرسائل في الأندلس ، حتى لقد ألف أبو الوليد الحميري في ذلك كتاباً جمع فيه ما قاله الشعراء والكتّاب الأندلسيون في وصف الربيع ومظاهره ، سمّاه " البديع في وصف الربيع".

وقد رسم الكتّاب الأندلسيون لوحات فنية رائعة كثيرة تصور مشاهد الربيع الجميلة ، وتنطق بما فيه من سحر وجمال ، ومن ذلك رسالة لأحد الكتّاب جاوب بها أبا عامر بن أبي عامر ، وقد كتب إليه يسأله إباحة الخروج له إلى ضياعه للتنزه في فصل الربيع ، ويصف مشاهد الربيع الجميلة ، ويجعل ذلك في إشراق الأرض ونضارة الرياض وغناء الطيور ، واختلاف ألوان الزهر ، وأوراق الشجر ، وما إلى ذلك من خضرة ساطعة وثمار يانعة ، حيث يقول : " وأقبل الربيع بكل حُسن بديع، وأفصحت الطير بعد عجمتها ، وأبدت النَّواير غرائب زهرتها ، وكست الورق شجرها ، وغطت الزرع قدرها ، فلست ترى إلا خضرة تسطع ، وثماراً تينع "(١)

ويتوقف عند أثر هذه المناظر الجميلة في نفوس الناس ، فهي تروح عن النفس الصداً ، وتدفع عنها الحزن و الأسى بما تبعته من بهجة وسرور ، يقول : " تجلو الصدى من الكبد الحرّى ، وتزيحُ الأسى عن النفوس المرضى "(٢).

ويصف عبدالوهاب بن حزم سحر الطبيعة الأندلسية في الربيع متمثلة في الأرض والأشجار والدنيا ، وما يصل بها من مظاهر الجمال التي تأتي مع الربيع ، ويجعل ذلك لوناً من التعاطف بينه وبين الربيع وما يبعثه من حياة في الطبيعة،"فالأرض قد نشرت ملاءها ، وسحبت رداءها ، ولبست جلبابها ... وبرز الوردُ من كامه ، واهتَزَّ الروض لتغريد حمامه ، والأشجار قد نشرت شعورها ، وهزّت رؤوسها ،

(١) البديع : ص ٨ .

(٢) نفسه : ص ٨-٩

والدنيا قد أبدت بشرها وأماطت عبوسها ، وكأن بها قد اطلعت من كل ثمر ضروباً ، وأبدت من جناها منظراً عجيباً ...»^(١) .

لقد شخص الكاتب الطبيعة وبتَّ فيها الحركة والحياة ، وخلق عليها المشاعر الإنسانية .

أمّا ابن خفاجة فإنه يُعبّر عن سمات الجمال في يوم من أيام الربيع البهيجة في صورة بديعة تمور بالحركة ، وكأنه حفل عرس ، أو منتدى غناء ، تشترك فيه كافة مظاهر الطبيعة ، وهي بين مطرب للسمع ، ومبهج للنفس ، وممتع للنظر ، يقول : " هذا يوم ضُربَتْ فيه أروقه الأنواء ، وأعرست الأرض فيه بالسماء ، فالعُصن ينلوى ويتننى ، والحمامة تُرجع وتغنى ، والماء يرقص من طرب ويصقّ...»^(٢)

إنّه يعبّر عمّا يحسُّ به من إحساس كبير بهذا الجمال والسحر ، ويجعل الطبيعة تشاركه الفرحة والسرور . ثم هو يدعو صديقه إلى مشاركته في الاستمتاع بمظاهر الطبيعة ، وما فيها من سمات البهجة وأسباب الفرحة ، يقول " فإن رأيت أن تكون في من شهد هذا الإفلاك^(٣) ، وتحضر في من حضر هناك ، أجبت منعماً"^(٤) .

كذلك حظيت الرياض باهتمام الكُتّاب بها ، فوصفوا مفاتنها ومواطن الروعة فيها . ومن أبرز الرسائل في هذا المجال رسالة لابن خفاجة يصف فيها إحدى الرياض التي كان يتردد عليها مع رفاقه في أيام الربيع ، حيث الأزهار المختلفة الألوان ، والأشجار الوارفة الظلال ، المتشابكة الأغصان ، والأنهار الجارية ونسيم عليل، وظل ظليل، وخضرة ممتدة ، يقول " فاحتلنا قبة خضراء ، ممدودة

(٣) الذخيرة : ق ١م ١ ، ص ١٤٥ .

(١) نفسه : ق ٢م ٣ ، ص ٥٤٦ .

(٢) الأفلاك : الفلك : المستدير من الأرض (اللسان : مادة فلك) .

(٣) الذخيرة : ق ٢م ٣ ، ص ٥٤٦ . ويجد الباحث أمثلة أخرى على هذا اللون من الرسائل في البديع : ص ٢٢ .

أشطان الأغصان ، سندسية رواق الأوراق . وما زلنا نلتحف منها ببرد ظلّ ظليل ،
ونشتمل عليه برداء نسيم عليل..^(١)

وقد كانت تلك الرياض مسرحاً لحياة الكتاب اللاهية ، فكانوا يلجأون إليها
ليستريحوا من صخب الحياة وضجيجها بعد التّطواف والتجوال الطويل في بلاد
الأندلس ، فيمتعون أنظارهم بجمالها ، ويقيمون في رحابها مجالس الأناجيب والشرب
، ولهذا فقد ارتبطت هذه المجالس بالطبيعة الأندلسية .

ومن الرسائل التي جاءت في هذا الموضوع رسالة لابن الحنّاط يصف فيها
مجلس لهو أقيم وسط إحدى الرّياض الجميلة ، وقد حضره مع بعض ندمائه ،
حيث جعلت الكأس تدور ، ولا حديث لسقاتها ، غير هاك وهاتها^(٢)

وقيل في وصف الرياض والبساتين في الأندلس: " ثم ظلت أحيى من حكمة
الروضة الغناء الأنيقة ، ومن كلمة الدوحة العيناء الوريقة ، بينما أنا أرتع من ذلك
البستان ، في مستاسد القربان ، وأرعى من حُسن البيان ، إلى طرب من أغاني
القيان ، شارباً من مائه الزلال.. "

لقد التفت الكتاب الأندلسيون إلى الورود والأزهار من ورد وندرجس
وسوسن وخيريّ وبنفسج وآس، وغيرها مما زانت حدائق الأندلس وجنانها،
فألبيت الطبيعة ثوباً سندسياً زادها حسناً ورونقاً، وقد افتتن الكتاب في وصف
ألوانها الزاهية، وعبيرها الفواح، وعطرها الشذي، وخلعوا عليها صفات الحسن
والبهاء والجمال. ولقد تجاوز الإعجاب حد الوصف إلى إقامة مناظرات
ومفاضلات بين مختلف الأزهار.

ويعد الجزيري أول من كتب هذا اللون من الرسائل في الأندلس ، ومن ذلك
رسالته التي كتبها للمنصور بن أبي عامر على لسان بنفسج العامرية ، وقد فضل
الجزيري في رسالته هذه البنفسج على النرجس والبهار حيث يقول : " وقد ذهب
البهار والنرجس في وصف محاسنها والفخر بمشابههما كلّ مذهب ، وما منهما إلاّ

(٤) الذخيرة : ق ٣ م ٢، ص ٥٤٤.

(١) الخريدة : ج ٢، ص ٢٩٨.

ذو فضيلةٍ غير أنّ فضلي عليهما أضح من الشمس التي تعلونا ، وأعرف من الغمام الذي يسقينا"^(١).

ثم أن الكاتب قد اتّجه بالرسالة نحو المديح ، حيث يقول على لسان البنفسج أيضاً مخاطباً المنصور بن أبي عامر : " إذا ترفعت الخصوم (أيد الله) المنصور مولاي في مذاهبها ، وتنافرت في مفاخرها ، فأليك مفرعها ، وأنت المقنع في فصل القضية بينها لاستيلائك على المفاخر بأسرها و علمك بسرّها وجهرها "^(٢).

ولعلّ الباحث في هذا اللون من الرسائل منحىً رمزيًا ، وصدىً للتنافس الذي كان الكُتّاب في بلاط الأمير ، حيث إن الكاتب يرجو التمييز على أقرانه ، ويوضّح فضله على غيره من كُتّاب القصر فهو يقول على لسان البنفسج : " إني أعطر منهما عطرًا ، وأحمدُ خُبْرًا ، وأكرمُ إمتاعًا شاهدًا أو غائبًا"^(٣).

وأيضاً ما كتبه ابن بُرد الأصغر لابن جهور ، وصف فيها خمسة من الأزهار وفضل الورد عليها . وقد بدأ ابن بُرد رسالته بالحديث عن مجلس تنادت إليه الأزهار المختلفة للتأمل في أحوالها ، حيث شرع كل واحد منها في وصف محاسنه والتعني بها : " وكان ممن حضر هذا المجلس وشهد هذا المشهد من مشاهير الأزهار ورؤساء الأنوار التّرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيريّ النّمّاء .. "^(٤).

وقد جعل بعض الكتاب وصفهم خاصاً بزهرة واحدة، كما صنع أبو الوليد ابن العثماني^(٥)، الذي تحدث عن جمال الخيريّ منظرًا ومخبرًا، وجعله في مقدمة

(١) البديع ص ٧٨.

(٢) نفسه ص ٧٨.

(٣) نفسه ص ٧٨.

(٤) نفسه ص ٥٥.

(٥) أبو الوليد بن العثماني، كان صاحب الشرطة بإشبيلية زمن المعتضد بن عباد (انظر: البديع: ص ١١٣).

الأزهار، يقول: "بعثتُ بخيري جاز حد التكبير بأنسه فحاز قصب السبق في أبناء جنسه، منظره أرّبي على المسك بنضرتة... بهجاً منظره أرجاً مخبره"^(١).

ولأبي الوليد الحميري من رسالة في وصف الورد، وقد ربط بين لون الورد ولون خدود المعشوقين التي أدمتها ألحاظ العاشقين، يقول: "بعثت بخدود المعشوقين، قد أدمتها ألحاظ العاشقين.."^(٢).

وقد وصف بعض الكتاب حشداً من الأزهار والورود^(٣). ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رسالة لأبي جعفر بن أحمد الذي أعجبَ بالألوان على اختلاف أشكالها، والأزهار على تنوع ألوانها، يقول: (فَمِنْ أُنُورِ أَيْنَعَتِ، وَأَزْهَارِ تَنُوعَتِ: فَمِنْ وَرْدٍ كَتُورِيدِ الْخُدُودِ، وَنَرَجِسٍ كَمُقَلِّ الْغَيْدِ، وَسُوسَنِ كَأَنَّهُ رَاحَةُ ثَنَتِ الْبَنَانِ عَلَى قُرَاضَةٍ مِنَ الْعُقْبَانِ... وَخَيْرِيٌّ كَأَنَّمَا اسْتَعَارَ شَكْلَهُ، أَوْ اخْتَارَ بَذْلَةَ الْمَحْزُونِ، وَبِنَفْسِجِ حَكِي زَرَقِ الْيُوقَيْتِ..."^(٤).

لقد خلع عليها حيوية وحركة وجمالاً، فالورد محمر كالخدود، والنرجس كعيون الفتيات الجميلات، والخيري كأنه بنان انثنى على قطعة ذهب، والبنفسج أزرق كالياقوت.

وكما وصف الكتاب الأندلسيون الأزهار والورود، وصفوا الثمار، إلا أنها لم تحظ بتلك المكانة التي حظيت بها الأزهار فيما انتهى إلينا من رسائلهم، ولعل ذلك يعود إلى أن الأزهار والنواوير والورود شيء جمالي بألوانها ورائحتها وأشكالها، وتثير في الكاتب انفعالات ومشاعر وأحاسيس أكثر مما تثيره وتحركه الثمار التي هي غالباً ما تكون مادة طعام وتفكه^(٥).

وأما الثمار وأصناف الفواكه فالأندلس أسعد بلاد الله بكثرتها ويوجد في سواحلها قصب السكر والموز المعدومان في الأقاليم الباردة ولا يعدم منها إلا التمر

(١) المصدر السابق نفسه: ص ١١٣.

(٢) المصدر السابق نفسه: ص ١٢٩.

(٣) انظر: البديع: ص ٣١، الذخيرة: ق ١٣م، ص ٤٦٩ - ٤٧٠.

(٤) الذخيرة: ق ٢٣م، ص ٧٦١.

(٥) الشعر في ظل بني عباد: ص ١١٣.

ولها من أنواع الفواكه ما يعدم في غيرها أو يقل كالتين القوطي والتين الشعري
باشبيلية.

قال ابن سعيد وهذان صنفان لم تر عيني ولم أذق لهما منذ خرجت من
الأندلس ما يفضلهما وكذلك التين المالقي والزبيب المنكبي والزبيب العسلي
والرمان السفري والخوخ والجوز واللوز وغير ذلك مما يطول ذكره...

وقد وصف ابن برد النخلة برسالة له يخاطب فيها صاحب نخلة ويعاتبه
لتكتمه بنخلته بالعام الفارط و يطلبه الجود والكرم عليهم من خيرها ورطبها
ويذكره بوعده لهم أنه سوف يجود عليهم بالغلة هذا العام فيقول: " فقد علمت ما
سلف لنا في العام الفارط من عتابك ، ولبسنا شكته من ملامك ، لمّا كتمتنا صرام
النخلة التي هي بأرض إحدى الغرائب ، وفريدة العجائب هرباً أن نلزمك الإسهام
في رطبها ، وحرصاً على تمام لذة الاستبداد بها ، وقلت ، وقد سألتك من جناها
قليلاً ورجونا أن تُنيلنا منها ولو فتيلاً : لو علمتُ أن لكم به هذا الكلف ، وإليه هذا
النزاع ، لأمسكته عليكم ، وجعلتُ حكم جداده إليكم ، ولكنها إن شاء الله في الأنف
غلتكم عتاد نفيس لكم .." (١)

ويذكر فيها أقوال العرب لأنواع صغار النخل ومسمياتها فيقول : " تقول
العرب لصغار النخل : الجنيث ، والوادي ، والهراء ، والفسيل ، والأشياء ،
والكافور ، والضمد ، والإغريض." (٢)

ويذكر مراحل نمو صغار النخلة وإثمارها وأن لكل مرحلة يطلق عليها
مسمى عند العرب فيقول : " فإذا انعقد سمته السياب ، فإذا اخضرَّ قبل أن يشتدَّ
سمته الجدال ، فإذا عظم فهو البُسرة إلى الحمرة فهي شُقحة ، فإذا ظهرت الحمرة
فهي الزَّهو وقد أزهى ، فإذا بدت فيه نقطة من الإرتاب قيل قد وكت ، هي بُسرة

(٢) النخيرة: ق ١ م ٢، ص ٥٢٨.

(٣) نفسه : ص ٥٣٠.

مؤكته، فإذا أدرك حملُ النخلة فهو الإناض ، فإذا بلغ الإرطاب نصفها فهو المجزَع ، فإذا بلغ ثلثيها فهي حُلْقانه ، فإذا جرى الإرطاب فيها كلها فهي مُنْسَبَتَةٌ" (١).

ثم يستمر الكاتب في ذكر أهمية النخلة وأنها مصدر للعيش والقوت فيقول: " في النخل التي رزقنا الله كفافاً من العيش كاف، وبلغت من القوت مقنعة . ثم أعظم من أمرها بدنو طعامها في الجدوب ، وصبرها لتصرف الليالي والأيام ."(٢)

ويكمل خطابه لصاحب النخلة لكي يطعمهم من رطبها فجعل النخلة عمة بل عمة لجميع المسلمين إذا لم يستفيدوا من خيرها ويمنعها عنهم فهم سوف يتوجهون بشكواه للسلطان فيقول : " نعمت العمة لكم النخلة ، والخطاب لجميع المسلمين . وأنت قد استوليت على عمة من عمّاتهم ، تستبد بخيرها دونهم ، وتمسك معروفها عنهم . ونحن رجال من بني أخيها أتينا نعتفيها ، فإن أنت سويتنا مع نفسك فيما تدرُّ به عليك ، وتملاً منه يدك ، وإلا نافرناك إلى السلطان.."(٣)

ولقد وصف الكتاب الأندلسيون أيضاً بعض الثمرات، كالتفاح والأترج، ومن ذلك ما كتبه ابن خفاجة إلى صديق له، وقد بعث إليه تفاحاً، حيث يصور ابن خفاجة التفاحة تصويراً جميلاً، يجعله أفضل سفير ورسول بينه وبين صديقه، فصديقه يعلم "أن خير الهدايا، ما جرى مجرى التحايا، وأن أفضل سفير سفر بين صديقين، وتردد بين عشيقين، سفير أشبه المحب خفة روح، والمحبوب عبق ريح"(٤). ويشبه لون التفاحة بلون الخمرة الحمراء، أو دمة المحب، أو جمرة نار منعقدة، أو خمرة تشرب جامدة، وأنه لم يرَ مثلها في اللون، فلونها يقوق لون الذهب الصافي، أو اللهب اللافح، يقول: "مثل حمراء عاطرة، كأنها دمة صبّ.. مشتق من الأرج اسمها ... لم أرَ مثلها ذهباً ينفح، ولهبا لا يلفح..."(٥).

(١) نفسه : ص ٥٣٠.

(٢) نفسه : ص ٥٣١.

(٣) نفسه : ص ٥٣١.

(١) الذخيرة: ق ٢م ٣، ص ٥٤٥.

(٢) نفسه: ص ٥٤٥.

ومن ذلك رسالة للوزير الكاتب أبي جعفر ابن اللمائي^١ يصف فيها تفاحة: " تفاحٌ قطعت حمرة و صفرته من خجالات الخدود ، ونزعت صورته شبه فوالك النهود ، وختم على ألد من سلوى النحل ، وأعذب من جني النخل ، ناسب الرياض وأفنى عمره عمرها ، فورثته زهرها ، تذكرك أسافله سرر البطون الغلب ، وطعمه لذاذة الثغور الشنب " .^٢

ولابن خيرة القرطبي من رسالة يصف فيها أترجة بعث بها إلى أحد أصدقائه، وقد النقطةا من أحضان الورق، يقول: "وقد بعثت إليك من بنات الثمار أجملها، ومن نتائج البستان أفضلها...". ثم هو يصف خصائلها العجيبة وصفاتها الغريبة، فإن خزنتها عطرت أثوابك، وإن أمسكتها أذهبت أوصابك^(٣)... يالها من أترجة غضة، قد صُورت من ذهب وفضة"^(٤).

وقال أبو محمد عبدالغفور في وصف سفرجل وتفاحة: " والمهدي بين يدي هذه الأحرف عدد ، كذا من سفرجل ، وتصحيفه عندي سفرجل ، وإذا سفر عن ثغره جلّ ، فالظفر بطارق الهمّ مجلّ ، يشبه صور العذارى ضمّخت بالعبير ، وثديهن بالتقييس والتقدير ، كأنما لبست من الحرير سرقاً ، أو شكت بألوانها و جداً قد برّح بها وأرقاً ، بل كأنما سرقت الثدي طوابع مسك أحمّ ، ضمّت عليه جوانحها إذ خافت الدّم ، أقداح غرّب ، علّت بماء ذهب ، طبع من العنبر نواها ، وناب عن شذاها الفائح للشرب ساطع شذاها ، وربما فضلت شهّي التفاح ، وفتكت بأدواء المعد فتكة السقّاح ، وإنّ فاكهة تشبه الثدي ، وتشرّك في بعض صفاتها الهدّيّ ، لجديرة بأن يحفظها عناقاً ، ولا يعدل بالواحدة منها عناقاً ، بل يجعل فدية قضمها أن تُشدّ وثاقاً ، وتضرب أعناقاً . وإن محالّك من نفسي لخصيب جناب الصفاء ، نقيّ جلباب الوفاء ، فصيح طير الثناء ، نصيح جيب الصناعة والولاء ، وداداً لا يُبلغ مداه ، ولا تُوبسُ هواجر البعد ثراه ، والله يُلحفه من التمهيد ظللاً ، ويزيد يانع

^١ اسمه أحمد بن أيوب ، عمل كاتباً لدى الناصر لدين الله علي بن حمود ، ت ٤٦٥ ، انظر ترجمته ف الذخيرة ، ج ١ ، ص ٤٧٢ .

^٢ الذخيرة ، ج ١ ص ٤٩٢ .

(٣) أوصاب: جمع وصب وهو الوجع والمرض (اللسان مادة: وصب).

(٤) الذخيرة: ق ١ م ١ ، ص ١٩٦ ، ٢٨٩ .

روضه نَضْرَةً وجمالاً ، حتى لا تكرر عيون أزهاره ، ولا تعيا السنة أطياره ، ولا يعزى من ورق عوده ، ولا تخشى من حلّ نظام عقوده ^(١)

النافورة:

اختلف نموذج النافورة في الأندلس داخل القصور أو الحدائق أو البيوت أو المساجد و خارجها بسبب المصدر المائي و غزارته ، و يمكن أن يكون سبب الاختلاف ليس في الشكل و إنما في طريقة الصنع أيضاً .

واختلفت النوافير الأندلسية اختلافاً كبيراً من حيث شكل وشدة اندفاع الماء وعدد فتحات خروجه وزوايا الخروج، وبالتالي شكل وارتفاع الماء المندفِع، وتبعاً لذلك كانت النافورات الأندلسية عامودية وكروية ومخروطية وهرمية، كما كانت بسيطة ومتعددة، فكانت المتعددة إما مكونة لتكوين واحد متكامل، أو موزعة لتكون حزاماً أو إطاراً أو لتؤدي أدواراً متعددة تضيف جمالاً وروعة .

ولقد اختلف أشكال النوافير الأندلسية باختلاف أماكن تواجدها، وكذلك اختلفت هذه النوافير حسب الغاية المرجوة منها ، فكانت تتناسب مع مساحة المكان و ما يحيط بالنافورة من أشجار و مباني ، وقد تم مراعاة الدقة في اختيار المكان المناسب لإنشاء النوافير، بحيث تظهر كجزء أساسي في تنسيق هذه الأماكن.

كان الأندلسيون يوسعون القيعان حتى تصبح أحواضاً فسيحة تمتلئ بالمياه الساقطة من المرتفعات الجبلية ، وترفع بالنواعير (السواقي) تستخدم في الري . ولا تزال إحدى هذه القيعان (الأحواض) قائمة حتى اليوم جنوب بلنسية بأسبانيا (٢)

وقد ذكر المقري في وصف النواعير الموجودة بالأندلس قوله: " أجرى له الماء العذب من جبل قرطبة في قناة يجري ماؤها بتدبير عجيب ، وصنعة محكمة

(١) النخيرة م٢ ، ص ٢٥٩-٢٦٠ .

(١) رحلة الأندلس :حسين مؤنس ص٢٧٥ ، ط١ ، مطابع كوستا توماس القاهرة سنة ١٩٦٤م

إلى بركة ماء عظيمة عليها أسد عظيم الصورة بديع الصنعة ، يجوز الماء إلى عجزه فيمجه بقمة في تلك البركة فيسقى جنان القصر على سعتها" (١) .

وذكر المقرئ الترع الموجودة في قصر قرطبة بقوله : " وأجروا فيها المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمونوا المونّ الجسيمة حتى أوصلوها إلى القصر الكريم ، وأجروها فيه كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه في قنوات الرصاص تؤديها منها إلى المصانع صور مختلفة لأشكال من الذهب والابريز ، والفضة الخالصة والنحاس المموه ، إلى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة والصهاريج الغربية ، في أحواض الرومية العجيبة . "الرخام.

ولقد أصفى الشقندي على النواعير وصفاً حياً أبان فيه اللمسات الفنية الجميلة والمظاهر الخلابة عبر رسالته التي فاخر فيها الأندلس ، تلك اللوحة المعبرة بصدق عن جمال طبيعتهم، فيقول: "... وأما مرسية فإنها حاضرة شرق الأندلس، وواديها قسيم وادي إشبيلية، كلاهما ينبع من شقورة، وعليه من البساتين المتهدلة الأغصان، والنواعير المطربة الألحان، والأطيوار المغردة، والأزهار المتنضدة..." (٢) .

ونسلم ترانيم الدواليب وما تتركه من أثر وصف "ابن ظافر" الذي يقول: "سرنا في بعض العشايا على البساتين... فرأينا بئراً عليها دولابان متحاذيان ... وهما يئنان أنين الأشواق، ويفيضان ماء أغزر من دموع العشاق، والروض قد جلا للأعين زبرجده، والأصيل قد راقه حسنه، فنثر عليه عسجده، والزهر قد نظم جواهره أجياد الغصون والسواقي قد أذابت من سلاسل فضتها كل مصون ... وزعفران العشى قد ألقى في ذيل الجور روعة، فأوسعنا ذلك المكان حسن وقلوبنا استحوذا... وملنا إلى الدولابين ... وجلسنا نتذاكر ما في تركيب الدواليب من الأعاجيب، وبتناشد ما وصفت به من الأشعار الغالية الأسعار، فأفضى بنا الحديث

(٢) انفع الطيب ج ١، ص ٢٦٤.

(١) "نفع الطيب"، ج ٤، ص ٢١٠.

الذي هو شجون إلى ذكر قول الأعمى التطيلي^(١) في أسد من نحاس يقذف الماء...".

وقال ابن حيان عن جابر في وصف نواعير موجودة داخل قصر المأمون بن ذي النون بطليطلة شيده ملك طليطلة المأمون بن ذي النون في عام (٤٤٥ هـ - ١٠٦٣ م) : " ولهذه الدار بحيرتان قد نصب على أركانها صور أسود مصوغة من الذهب الابريز أحكم صياغة ، تتخيل لمتأملها ، كالحاة الوجوه فاغرة الشدوق ، ينصاب من أفواها نحو البحيرتين الماء هونا كشيش القطر أو سحالة اللجين ، وقد وضع في قعر كل بحيرة منها حوض بديع يسمى المذبح ، محفور من بديع المرمر ، كبير الجرم غريب الشكل ، بديع النقش ، قد أبرزت من جنباته صور حيوان وأطياف وأشجار^(٢) وينحصر منها في شجرتي فضة عاليتين الأصليين غريبتين الشكل ، محكمتي الصنعة ، قد غرزت كل شجرة منها وسط كل مذبح بأدق صناعة يبرق فيهما الماء من المذبحين ، فينصب من أعالي أفنانها انصباب رذاذ المطر أو رشاش التندية ، فتحدث لمخرجه نغمات تصب النفوس ، ويرتفع بذروتها عمود من الماء ضخ منضغط الاندفاع ، ينساب من أفواها ويبلل أشخاص أطيافها وثمارها بالنسبة كالمبارد الصقلية ، يقيد حسناتها الألباظ الثاقبة ، ويدع الأذهان الحادة كليلة^(٣) .

وقال الفقيه أبو محمد عبدالله البطلوسى: " الناعورة بالمنية التي تطمخ إليها المنى ، ومرآها هو المقترخ والمتمنى ، والمأمون قد احتبى ، وأفاض الحبا ، والمجلس يروق كأن الشمس ف أفقه ، والبدر في مفرقه ، والثور عبق ، وعلى ماء النهار مصبح ومعتبق ، والدولاب بين كناقاة إثر الحوار ، أو كتكلى من حر الأوار ، والجو قد عنبرته أنوؤه ، والأسد قد فغرت أفواهاها ، ومجت أمواهاها"^٤ .

(٢) الأعمى التطيلي: أبو جعفر أحمد بن عبدالله بن هريرة الأعمى التطيلي له أدب بارع ونظم كالسحر الحلال، أنظر:

ابن سعيد المغربي: "المغرب في حلى المغرب"، ج ٢، ص: ٤٥١.

(١) يشبه هذا الحوض حوض مدينة الزاهرة التي عثر عليه أشبيلية ، ومنه هذه الزخرفة الحيوانية

(٢) المساجد والقصور في الأندلس ، ص ٦٢

(٤) القلائد ، ص ٢١٤-٢١٥.

فيتضح لنا من هذا الوصف من عناية مهندسي القصور بالبحيرات والنوافير مما يعبر عن ترف كبير وبذخ ما فوقة بذخ .

وصف المساجد:

حظيت الأندلس بنصيب كبير من عناية ولاة الأندلس وأمرائها وخلفائها ، وكانت المساجد هي الأساس الذي أعتد عليه المسلمون في صبغ المدن وبما أن قرطبة كانت حاضرة المسلمين في الأندلس حيث وصفها ابن حوقل بقوله : " وهي أعظم مدينة بالأندلس ، وليس بجميع المغرب لها عندي تشبيه في كثرة أهل، وسعة محل ، وفسحة أسواق ، ونظافة مجال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق "

ولم يخلد أثر من الآثار الإسلامية في كتب التاريخ كما خلد المسجد الجامع بقرطبة، فقد كتب عنه جميع مؤرخي العرب في المغرب والأندلس ووصفوه وصفاً دقيقاً فاق كل وصف، ولولا أن هذا الأثر الجليل ما يزال قائماً حتى اليوم تشهد عناصره بصدق أقوالهم. ولقد عظم أهل الأندلس هذا المسجد، ويرجع ذلك التعظيم إلى أن حنش بن عبدالله الصنعاني وأبا عبدالرحمن الحنبلي التابعين توليا تأسيسه بأيديهما، وقوما محرابه. واحتفظ الأمير عبدالرحمن الأوسط بالمحراب القديم في زيادته لبيت الصلاة^(١)، كما احتفظ المسجد الجامع في زيادته المتتابعة باتجاه القبلة الذي حدده حنش الصنعاني. ومن مظاهر إجلال هذا الجامع ما نعت به مؤرخو العرب، فقد سماه المراكشي بالجامع الأعظم^(٢). وكذلك أسماه ابن بشكوال^(٣)، وابن الخطيب^(٤)، ووصفه الإدريسي بقوله: " وفيها الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتنميماً وطولاً وعرضاً^(٥)". وقال عبدالمنعم الحميري:

(١) انظر الرسالة الشريفة في الأقطار الأندلسية للغساني، ص ١١٦ - ١١٧ .

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد المراكشي، تحقيق سعيد العريان، القاهرة ١٩٤٩، ص ٣٧٢ - ٢٧٣ .

(٣) نوح الطيب للمقري، ج ٢، ص ٩٩ .

(٤) كتاب أعمال الأعلام، لابن الخطيب، نشره ليفي بروفنسال، الرباط ١٩٣٤م، ص ٤٣ - ٤٨ .

(٥) وصف المسجد الجامع بقرطبة من كتاب نزهة المشتاق، للإدريسي، تحقيق دوسيه لامار، الجزائر ١٩٤٩م.

"وفيها المسجد الجامع المشهور أمره، الشائع ذكره، من أجل مصانع الدنيا كبر ساحة، وإحكام صنعة، وجمال هيئة، واتقان بنية، تهم به الخلفاء المروانيون فرادوا فيه زيادة بعد زيادة وتتميمًا إثر تتميم حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حسنه الوصف^(١) وليس في مساجد المسلمين مثله تنميماً وطولاً وعرضاً".

ولقد وصف ابن سعيد الزيادة في مسجد قرطبة التي تمت في عهد الخليفة الحكم المستنصر بقوله: "وبهما كملت محاسن هذا الجامع، وصار في حد يقصر عنه الوصف"^(٢).

وفيما يلي رسالة ابن صاحب الصلاة في وصف جامع قرطبة يقول إلى بعض إخوانه: "... وإني شخصت إلى حضرة قرطبة - حرسها الله - منشرح الصدر، لحضور ليلة القدر، والجامع - قدس الله بقعته ومكانه، وثبت أساسه وأركانه - قد كسى برده^(٣) الازدهاء، وجلى في معرض البهاء، كأن^(٤) شرفاته فلول في سنان، أو أشرف في أسنان، وكأنما ضربت على سمائه كلل، أو خلعت على أرجائه خلل، وكان الشمس قد خلقت فيه ضياءها، ونسجت على أقطاره أفياءها، فترى نهاراً قد أحرق به ليل، كما أحرق بربوة سيل، ليل دامس، ونهاراً شامس، وللذبال تألق كنضضة الحيات، أو إشارة السبابات في التحيات^(٥)، قد أترعت من السليط كؤوسها، ووصلت بمحاجن الحديد رؤوسها..."^(٦).

تنم هذه الرسالة عن قدرة عالية على الوصف ومهارة في استقصاء الجزئيات، وبراعة في التشبيه والتصوير، وقد كتبها حين شحّص إلى قرطبة لحضور ليلة القدر والجامع "قد كسى برده الازدهاء، وجلى في معرض البهاء،

(١) الروض المعطار، للحميري، نشره ليفي بروفنسال، لندن، ١٩٣٨، ص ١٦٨.

(١) نفح الطيب، ج ٢، ص ٩٧.

(٢) في النفح: ببردة.

(٣) في الأصل: كان.

(٤) في الأصل: بالتحيات، وما ثبت من النفح هو أصوب.

(٥) رسائل ومقامات أندلسية، ص ٦٦ - ٦٧.

وكان شرفاته فلول في سنان، أو أشر في أسنان، وكأنما على سمائه كلل، أو خلعت على أرجائه حُلل... وللذبال تَأَلَّق كَنُضْنُضَةُ الحَيَّاتِ، أو إشارة السَّبَّابَاتِ في التَحِيَّاتِ"^(١). ويعني ابن صاحب الصلاة بوصف أجواء المسجد حيث "الطيب تفعم أفواحه، وتتنسم أرواحه، وقنار الأُلُنْجُوجِ والند، يسترجع من روح الحياة ماندًا" كما يعني بتصوير حركة الناس داخل المسجد في تلك الليلة المباركة، فهم "بين ركع وسجّد، وأيقاظ وهُجْد، ومزدهم على الرقاب يتخطاها، ومقتحم على الظهور يتمطاها" ويتبعهم بعد أن انتهت الصلاة حيث "تبادروا بالتكليم، وتجادبوا بالأثواب، وتساقوا بالأكواب"، كما يرصد ابن صاحب الصلاة صوراً أخرى، بعضها للعلماء وهم يتدارسون حيث "تنسكب العلوم بينهم انسكاب الودق"، وينقل صورة أخرى للقومة وهم "يجهدون في دفع الضرر، ويعمدون إلى قرع العمدة بالدرر"^٢.

وعلى هذا النحو من الوصف والاستقصاء يمضي ابن صاحب الصلاة في رسالته حتى لتبدو أشبه بلوحة تصويرية تعجُّ بالحركة والحياة. ويذكر أيضاً في وصف الجامع وما من حلل وزخارف بالقباب فيقول ابن صاحب الصلاة: "وظهور القباب مؤللة، وبطونها مهللة، كأنها تيجان، ورُصع فيها ياقوت ومرجان، قد قوس محرابها أحكم تقويس ووشم بمثل ريش الطواويس، حتى كأنه بالمجرة مقرطق، وبقوس قوزح ممنطق، وكان اللازورد حول وشومه، وبين رسومه"^٣.

وقال أيضاً في القباب: "وأهتبل العرفاء واستعرفوا وتحذقوا في بناء القبة التي على محرابه أعظم الأهتبال في العمل بصناعة الجس والأقباء بالبناء ونجارة الخشب بغاية الأحتفال"^(٤).

(١) رسائل ومقامات أندلسية، ص ٢٤.

^٢ رسائل ومقامات أندلسية، ص ٦٦.

^٣ نفسه

(٢) المساجد والقصور في الأندلس، ص ٣٩.

وقد اتخذت مئذنة الناصر بعد أنموذجاً للمآذن الأندلسية المغربية ، وكانت على حد قول ابن بشكوال : " لا تعدلها صومعة أخرى".
وكانت تُرفع في أعلاها الشموع عند الاحتفال بليلة القدر وفي ذلك يقول ابن صاحب الصلاة : " والشمع قد رفعت على المنار رفعُ البنود وعُرضت عليها عرض الجنود ليجتلي طلاقة روائها القريب والبعيد ويستوي في هداية الشقي والسعيد ، وقد فُوبل منها مبيض بمحمّر وعُورض محضر بمصفر ، تضحك ببيائها ، وتبكي بضحكها ، وتهلك بحياتها وتحیی بهلكها" (١) .

(١) المرجع نفسه ، ص ٢٣ .

وصف المنازل:

وقصر قرطبة ، هو قصر شيدوه بالصفائح والعمد ، وأبدع بناؤه ونمقت ساحاته وفناؤه ، وحكو به قصرهم بالمشرق ،وقد ذكر المقري : أن هذا القصر شيد بالصفائح والعمد وأبدع في بنائه ، ونمقت ساحاته وكسبت سقفه بالزخارف المذهبة والمفضضة ،وأحيطت رياضه وجداوله في ساحاته وأفنيته بأرضيات مرخمة " وقد ظلت أطلال هذا القصر قائمة في عصر ملوك الطوائف ^(١) .

وكما بنى الأمير عبدالرحمن الداخل منية الرصافة شمالي قرطبة لنزهه وسكناه أكثر أوقاته ، فاتخذ بها قصراً وجنانا واسعة ، ونقل اليه غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ^(٢) "وحبذا أن نذكر هنا أنه شيد قصوراً كثيرة : منها المؤنس ، والخلافة ، والزهراء ، وكانت أسقف هذه القصور من القراميد المذهبة، وعمدها من الرخام والمرمر ، وجدرانها مكسوة بلوحات الرخام المذهبة والفسيفساء ^(٣) .

وعبدالرحمن الداخل أول من اتخذ بيتاً للوزارة في قصره واتخذ القصور والمنتزهات ، وأحدث الطرز ،وكسا الإمارة أبهة الجلالة ^(٤) ، وقد تشبه عبدالرحمن الناصر بجده الداخل بل وفاقه في بناء القصور ، وأسرف في الإنفاق عليها ومنها البهو والكامل والمنيف ^(٥) .

وقد أبدع المؤرخون والأدباء في روائع هذه القصور وما احتوته من مظاهر الترف والثراء مما لا يمكن أن يدقه العقل ولا المنطق ^(٦) .

وقد وصف ابن سعيد المغربي بأنها " في غاية الجمال لمبالغة أهلها في أوضاعها وتبييضها لنلأ تنبو العيون عنها "، وأضاف مقارناً بينها وبين الدور

^(١) قرطبة حاضرة الخلافة : ص ٥٣ ،

(١) المساجد والقصور في الأندلس : ص ٥٣

(٢) المرجع نفسه : ص ٥٤

(٣) الحلة السيرة ابن الأنبار ، ج ١ ص ٢٣١ ، ٢٣٠ ترجمة رقم ٨٩ .

(٤) المقتبس : ابن حيان ، ق ٣ ص ١١ تحقيق مشور انطوانية ، دوزي تاريخ مسلمي أسبانيا ج ٢ ، ص ٢٦٣ . فون شك :

الفن العربي بأسبانيا .

(٥) المرجع نفسه ص ٥٥ .

المصرية إنني تعجب لما دخلت الديار المصرية من أوضاع قراها التي تكدر العين بسوادها، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها"، وهو يشير بذلك إلى استخدام الطوب اللبن في بنائها، واستخدم الطين في تجصيصها، وهو ما كان سائداً في الريف المصري إلى وقت قريب.

كما أثنى الشقندي في رسالته على المباني فقال: "أما مبانيها فقد سمعت عن إتقانها، واهتمام اصحابها، وكون أكثرديارها لا تخلو من الماء الجاري".^(١) ويصف ابن بشكوال قائلاً: "وفي هذا القصر القصاب سمو، المنيفة العلو التي لم ير الراءون مثلها في مشارق الأرض ومغربها".

وذكر المقرئ في وصف قصر قرطبة بقوله: "ابتدع الخلفاء من بني مروان منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها في قصرها البدائع الحسان، وآثروا الآثار العجيبة، وفي القصر القباب العالية سمو".

وقد بلغ ملوك الطوائف في الترف والرقعة الغاية، وأقاموا القصور السامقة والآثار الجليلة الرائعة وقد بالغ المؤرخون العرب في وصفها ومن أهمها قصر ابن ذي النون في طليطلة، وقصر الجعفرية بسرقسطة، وقصر القصبية بمالقة^(٢).

قال ابن حيان عن ابن جابر في وصف أحد مجالس هذا القصر وهو مجلس المكرم: "وكنت ممن أذهلته فتنة ذلك المجلس، وأغرب ما قيد لحظي من بهي زخرفة الذي كاد يحبس عيني عن الترقى عنه إلى ما فوقه، أزاره الرائع الدائر بأسه حيث دار^(٣)، وهو متخذ من رفيع المرمم الأبيض المسنون الزاوية صفحاته بالعاج في صدق الملاسة ونصاعة التلوين، قد خرمت^(٤) في جثمانه صور البهائم، وأطياف ذات ثمار، وقد تعلق كثير من تلك التماثيل المصورة بما يليها من أفنان أشجار وأشكال الثمر ما بين جاد وعابث، كما تعلق بعضها بين ملاعب ومثاقف،

(١) دائرة معارف الشعب (٦٣) ص ١٢١.

(٢) المساجد والقصور في الأندلس، السيد عبدالعزيز سالم، ص ٥٩.

(٣) يقصد بذلك الكسوة الرخامية التي تغطي الجزء الأدنى في الجدار.

(٤) يعني الزخارف الحيوانية التي حفرت في هذه الكسوة الرخامية حفرًا غائرًا عميقًا من شأنه إبراز هذه الأشكال حتى

ترنو إلى من تأملها بالحاظ عاطف كأنها مقبلة عليه أو مشيرة إليه! وكل صورة منها منفردة عن صاحبها متميزة من شكلها، تكاد تقبّد البصر عن التعلي إلى ما فوقها، قد فصل هذا الأزار^(١) عما فوقه كتاب^(٢) نقش عريض التقدير، مخرم محفور، دائر بالمجلس الجليل من داخله، قد خطه المنقار^(٣) أبين من خط التزوير، قائم الحروب بديع الشكل، مستبين على البعد، مرقوم كله بأشعار حسان، قد تخيرت من أماديج مخترعه المأمون.

هذا الوصف المعبر الذي ينطق بما كان عليه هذا القصر يجلو لنا ما كان يقوم به المأمون لتجميل قصره، كما يشير إلى الدور الذي لعبته البحيرات في تجميل القصر ومجالسه، وقد اندثر هذا القصر، ولا نعرف عن أمره شيئاً يذكر على أن بطليطة لليوم آثار قصر يعرف بقصر جاليانا في فحص نهر تاجة، ويغلب على الظن أنه هو المنية أو القصر الشهير الذي شيده أبو الحسن يحيى المأمون بن ذي النون.^(٤)

ومن رسالة لابن الأثير الجزريّ يصف دار لعبت بها أيدي الزمن ، وفرقت بين المسكن والسكن : " كانت مقاصر جنة ، فأصبحت وهي ملاعب جنة ، وعميت أخبار قطنها ، وآثار أوطاتها ، حتى شابتهت إحداهما في الخفاء ، والأخرى في العفاء ، وكنت أظن أنها لا تسقي بعدهم بغمام ، ولا يرفع عنها جلباب ظلام ، غير أن السحاب بكاهم فأجرى بها هوامع دموعه ، والليل شق عليهم جيوبه فظهر الصباح من خلال صدوعه " .^٥

(١) اشتقت هذه الكلمة من الأزار وهو رداء يغطي الجزء الأسفل من الجسم من الوسط حتى تضفي الساقين ومنه فعل تآزر الحاط بحزام أو نحوه وما زالت هذه اللفظة تستعمل في اللغة الأسبانية بالمعنى الذي أشرنا إليه فهي كسوة من الرخام أو الزليج تغطي الأجزاء الديبا من الجدران.

(٢) أفريز أو طراز من الكتابة يحيط بأعلى الجدار.

(٣) الآلة التي ينقش بها النقاش.

(٤) المساجد والقصور في الأندلس، السيد عبدالعزيز سالم، ص ٦٢ .
(^٥ النفح ، ص ١٧٨ .

الفصل الثاني

الشكل

بعد أن مر بنا في الفصل الماضي أهم النصوص التي عرج عليها بعض كتاب الأندلس فيما يخص الرسائل النظرية في الوصف فإن هذا البحث سيعالج أهم الملحوظات الفنية التي رأيت الكاتب الأندلسي هنا يأتي إليها، التي تعد ظاهرة لدى بعض الكتاب مع ملاحظة أن الظواهر مشتركة بين هؤلاء الكتاب وغيرهم فيما يخص هذا الفن ، وأهم الظواهر الفنية تتجلى في الأمور التالية :

- بنية الرسالة.
- البناء اللغوي.
- الوضوح والغرابة في الألفاظ.
- الأساليب.
- الاقتباس والتضمين
- الصور البيانية

المبحث الأول بنية الرسالة

لم يحفل الكتاب الأندلسيون احتفال المشاركة بمطالع الرسائل وخواتيمها، ولهذا اتخذت رسائلهم في بنائها شكلاً فنياً جديداً، يختلف في بعض جزئياته عما ألف في الرسائل المشرقية التي تبدأ في الغالب بالبسملة، والتحميد والصلاة على الرسول الكريم.^(١) فصارت رسائلهم على اختلاف موضوعاتها وأغراضها تخلو في الغالب من الاستفتاح المعروف، وتبدأ بالدعاء للمرسل إليه^(٢)، أو بالمنظوم^(٣)، أو بالدخول في الموضوع مباشرة^(٤)، أو بتمهيد يتفاوت بين الإسهاب والتطويل والإيجاز والاختصار^(٥)، تبعاً لتنوع مقامات المرسل إليهم، واستخدام الألقاب التي تناسب ومن يكتب إليه أميراً أو وزيراً أو صديقاً.

ونلاحظ أغلب هذه الرسائل الوصفية لم تأت مستقلة بذاتها، وإنما جاءت في إطار الرسائل الإخوانية، ولذلك حرص أصحابها على أن يجعلوها مجالاً لإظهار براعتهم في الوصف، وتفننهم في الكتابة، وقد سلكوا في ذلك طريقاً مغايرة لتلك التي سلكوها في رسائلهم الإخوانية، فلم يجنحوا فيها إلى التصنع، ولم يهتموا بتوشية أسلوبهم بالشعر أو بتضمين الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة والأمثال أو بالتلويح بالأسماء والحوادث والإشارات وإنما قامت طريقته على التصوير والتفنن في الوصف، والبحث عن الصور الطريفة^(٦).

(١) انظر: البيان والتبيين: ج٢، ص٦٢، ٦٢، زهر الآداب: ج١، ص١٩٧، صبح الأعشى: ج٦، ص٢٧٥، النشر الأندلسي: ص٣٥٩.

(٢) انظر: القلائد: ص١٩٠، الذخيرة، ق٢ م١، ص٣٤٨، ٣٦٤، نفسه، ق٣ م٢، ص٥٤٦، ٨٠٠، الخريدة: ج٢، ص٧٥، نفسه، ج٣، ص٥٥١.

(٣) انظر: الذخيرة: ق١ م٢، ص٦٩٣.

(٤) انظر: القلائد: ق١ م١، ص٣٠٩، ق٢ م١، ص٣٤٢، ق٣ م١، ص٢٠١، ٢٧٩، ق٣ م٢، ص٥٥٠.

(٥) نظر: الذخيرة: ق٢ م١، ص٩٦، ٢٨٦، ص٢٧٨، أزهار الرياض: ج٣، ص٢١، ٢٩، الحلل الموشية: ص٤٥.

(٦) رسائل ومقامات اندلسية ص٢٧.

أولاً : استفتاح الرسائل :

ومما لاحظت من مادة هذا الرسائل تبرز الأساليب الاستفتاحية التي احتوت عليها المقدمة عند كُتاب الأندلس في هذه الحقبة وهي كالتالي :

١- الدعاء :

وقد افتتح عدد من الكُتاب رسائلهم بمقدمة دعائية تتضمن الدعاء للمرسل إليه بطول البقاء ، ودوام العز والمنعة ، والتأييد من الله سبحانه ، وكذلك بالسعادة ، ورغد العيش^(١).

فهذا أبو مروان مخاطباً أحد إخوانه فيقول : ((أطال الله بقاءك ، وعزك منيع ، وجنابك وسيع ، والزمان بمحاسنك ربيع))^(٢) ويقول أيضاً: ((أيد الله الفقيه الأجل ، القاضي الأعدل ، وفسح أمله في عز مشيد ، وجد سعيد ، وصنع مبارك حميد ، ولباس من النعمة والتقوى جديد))^(٣) وأيضاً ما قاله ابن صاحب الصلاة في رسالته التي اشتملت على عبارات دعائية تعبر عن السعادة : ((عمّر الله سبحانه بشمول السعادة رسّمك ، ووفر من جزيل الكرامة قسمك ، و لا برحت سحائب الإنعام تهمي عليك ثرة ، و أنامل الأيام تهدي إليك كل مسرة))^(٤).

٢- الاستفتاح بالأبيات الشعرية :

ومنهم من يستفتح رسالته بأبيات شعرية مستعارة من نظم غيرهم كما استفتح ابن صاحب الصلاة في رسالته التي مطلعها :

سأشكرُ عمراً ماتراخت منيّي
أيادي لم تُمنن وإن جلت^(٥)

وهو يستهلها لببيت ينسب لرجل يقال له عمرو بن كميل^(١).

(١) انظر : الخريدة ج٢، ق٤، ص٦٣٠، ٦١٢، ٥٥٤، ٥٣٨.

(٢) رسائل ومقامات أندلسية : ١٢٤ .

(٣) نفسه : ١٣٧ .

(٤) نفسه : ٦٦ .

(١) نفسه : ٧١ .

وأيضاً برسالة أخرى يستهلها بقوله :

هكذا هكذا تكون المعالي طرق الجدّ غير طرُق المزاج
هذي المكارم لا قعبان من لبن شيبا بمجدٍ فعادا بعدُ أبوالا .
وهو بيت لأمية بن أبي الصلت .
ومن ذلك أيضاً افتتاحية أبي مروان بن أبي الخصال في رسالته :
أرى النوى تقتضي كل مرحلة لا تستقل بهل الوخادة الرُسم^(٢)
وهو يستهلها لبيت للمتنبى .

ومن الكتاب أيضاً من يستفتح بأبيات شعرية من نظمهم ومن ذلك ما قاله
الكاتب أبي بكر بن صقلاب في رسالته التي مطلعها :
أتنتني من وشي البديع وشيجة تبهرج عنها وشي صنعاء واليمن
فقلتُ وقد راقتُ حُلاها وأشرقَت عُلاها لمن هذي الحلى والعُلا لمن؟^(٣)

٣- إضفاء الألقاب والنعوت على شخصية المخاطب :

وهناك أكثر من رسالة تبدأ مقدماتها بإضفاء النعوت والألقاب على
المخاطب من خلال مناداتهم بألقاب خاصة مثل {سيدي ، عمادي ..} .
ومن ذلك ما كتبه ابن المرخي في رسالته فيقول : ((سيدي المعظم ، ووليّ
في الله الأعزّ المقدم ، الذي وقف بي هواه حيث شاء ، فليس لي متأخرُ عنه ولا
مُتقدّم ، وقصرت عنها فلم أغادر منها من مُتردّم))^(٤)

(٢) ورد هذا البيت في الحماسة (٢:٢٦٦ بشرح التبريزي) _وبعده بيتان آخران ، وقد نسبه التبريزي في الحواشي (٢)
الى رجل يقال له عمرو بن كميل ، وذكر أنه قال الأبيات الثلاثة حين نظر اليه عمرو بن ذكوان وعليه جبة بلا
قميص ، فجعل يسعى له ويتشفع حتى ولى قضاء البصرة ، وورد البيت كذلك في الأمالي (٤٠/١) منسوباً لبعض
الأعراب .

(٣) الخريدة ق ٤ ج ٢/ ص ٢٦٤ .

(٤) رسائل أندلسية : ٢٥١ .

(١) رسائل ومقامات أندلسية : ٨٤ .

ورسالة ابن صاحب الصلاة التي يفتتحها بقوله: ((أستوهبُ الله أيها العمادُ الأعلى ، والسراج الأجلى ، والبدرُ الأتمُّ ، والطودُ الأشمُّ ، من النعم أبقاها . ومن العِصم أوقاها ، و لا زلت لعنان السيادة مالِكاً ، وفي منهاج السعادة سالِكاً))^(١).

٤- الاستفتاح بمقدمات طويلة :

ومنهم من يبدأها بمقدمة طويلة كابن برد في رسالته الذي بدأها بمقدمة طويلة حول مجلس ضم أصنافاً متنوعة من الأزهار والرياحين وتحدث عن بعض جوانب القدرة الإلهية في تنويع الأزهار وتلوين أشكالها وروائحها وتعدد مظاهر جماله،^(٢) فيقول: " وكان ممن حضر هذا المجلس وشهد هذا المشهد من مشاهير الأزهار ورؤساء الأنوار النرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيريُّ النمام.."^(٣) وسبق أن ذكرت هذا النص في الفصل السابق .

٥- الدخول في الغرض مباشرة:

وبعض الرسائل الوصفية التي أتتنا مستقلة بذاتها لم تحتو على مقدمات فيكون دخلوهم إلى موضوع الوصف مباشرةً. ومن الرسائل الوصفية التي لا تشتمل على مقدمات ما كتبه ذو الوزارتين أبو بكر بن عبدالعزيز^(٤) في وصف غيث أغاث إثر جذبِ عاث :
"استهلتُ — أدامَ اللهُ عزَّكَ ، كما وصلَ للمكارم اختيارك مع الصبَّاح ،
غَمامةً نبَّهت النَّدامي إلى الاصطباح ، فكأنها بناء على مقبوب أو على الأرض
مكبوب ، تمشي من النُّقل هوناً ، وتستدعي من الرِّيح عوناً"^(١).

(٢) نفسه : ٥٩ .

(٣) رسائل ومقامات أندلسية : ٨٤ .

(٤) النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ، لخضر ، ص ٢٥٩ .

(١) سبق التعريف به .

ثانياً – العرض :

العرض في الرسالة هو مجال بسط الأفكار ومناقشتها ، وإبراز العواطف والمشاعر في جمل وتعابير منبئة عن دوافع الكتابة والإرسال . وتتم فيه معالجة بعض الفنيات الأسلوبية التي احتوى عليها النسق البنائي للرسالة بوصفها نصاً أدبياً ، وقد سارت طرائق الكُتّاب في محور عرض الرسائل كالتالي :

أما التلخُّصُ من المقدمات إلى الغرض ، فكان على وجهين ، الأول هو ابتداء الخطاب ، أي أن يبدأ الكاتب بذكر ألفاظ ، أو عبارات تدلُّ على ابتدائه بالخطاب ، كقوله : كتبت ، وكتابي ، وكتابنا ، وخطابي و أمّا بعد^(٢) ، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة كتبها أبو الطَّرْف بن الدَّبَّاح مخاطباً بها بعض إخوانه، واصفاً روضة غنّاء من تلك الرِّياض التي كان يتردّد عليها ، يقول : "كتابي هذا من وادي الزيتون ، ونحن مختلفون ببقعةٍ اكتست من السندس الأخضر "^(٣).

أمّا الوجه الثاني للتخلص من المقدمات إلى الغرض المقصود ، فهو ردُّ الجواب أي أن يذكر الكاتب أنه يرُدُّ علي كتاب المرسل إليه كقوله ألقى ، وورد ، ووصل ووافاني .^(٤)

ومن الأمثلة على ذلك قول أبي المطرف بن الدَّبَّاح مخاطباً بعض إخوانه "ورد لك كتاب خلته للطفه سماءً، وتوهمته من خفته هباءً"^(٥).

وقد يداخل الكاتب بين ابتداء الخطاب ، وردّ ، الجواب ، كقول أبي بكر بن القصيرة في رسالة كتبها إلى أبي القاسم بن الجدّ يعتذر فيها عن عدم التقائه به، وقد قربت المسافة بينهما : " كتبت ولسان القلم يتعلم ،وقدم الكلم يتأخر أكثر ممّا يتقدّم

(٢) البيديع : ٩٨ .

(٣) إحكام صنعة الكلام : ص٧٨ .

(٤) النفع : ج ١، ص٥٣٤ .

(١) إحكام صنعة الكلام : ص٧٩ .

(٢) القلاندي : ص ١٠٧ ، وانظر أمثلة اخرى في : القلاندي : ص١٠٥، ٥٧، النخيرة : ق٢م١، ص٨٥٥، ٦٤٨، ق٣م١،

ص٢١٦، الحلل الموشية : ص٣٦، ٥٠ .

، هيبة لانتقادك .. ووصل إلي — وصل الله اعتلاءك ، وأثّل مجدك وسناءك —
خطابك الكريم ...".^(١)

وقد يحدد الكاتب زمن كتابة رسالته ونجد ذلك في بعض الرسائل الوصفية،
كقول أبي المُطَرِّف بن الدَّبَّاح يصف يوماً ممطراً: "يومنا يوم تجهم محياه، ودمعت
عيناه...".^(٢)، ومثال ذلك أيضاً قول ابن بُرْد الأصغر في وصف يوم ممطر أيضاً:
"اليوم يوم بكت أمطاره ، وضحكت أزهاره ..."^(٣) ، فذكرهم كلمة يوم تدل على
الزمن تحديده بيوم .

وعندما أتى إلى ابن أبي الخصال أجده حاول أن يدخل فيه شيئاً من التجديد،
فجعل الرسالة أقرب إلى الخطبة الدينية، حين أطال الأدعية الدينية والتحميدات في
أولها: "الحمد لله ذي الحكمة البالغة والنعمة السابغة ، الذي اعتمدنا بالإحسان ابتداء
، وأنشأنا من نفس واحدةٍ إنشاءً ، وجعل منها زوجها تماماً ووفاءً " ^(٤).

ثم جعل الزرزور يتحدث عن نفسه بعد أن كان يتحدث عنه،^(٥) "وقد أعفاكم
زرزوركم من النصب، ومد إلى السماء من الدعاء... اللهم يا من جعل الأرض
قراراً، وفجر خلالها أنهاراً، وجعل لنا من الشجر الأخضر ناراً"^(٦).

ولقد جعل ابن أبي الخصال من الزرزور في رسالة أخرى بطلاً مقامياً،
حين يجعله واعظاً وخطيباً يزر الناس، وينهي النص في إطار من المزوجة بين
الشعر والنثر، ورغم ذلك فقد ظل عنصر الوصف طاغياً على الرسالة، يقول: "إنما
هو زرزور عليه الليل مزور، رشته النجوم بياسطكم البعيد والقريب، يطارحكم
المستعمل والغريب، يلقط الإحسان حباً، ويضمه حباً، ويلفظه لؤلؤاً رطباً"^(٧).

(٣) الذخيرة : ق ٢ م ١، ص ٢٩٦ .

(٤) القلائد، ص ١٠٨ .

(٥) الذخيرة : ق ١ م ١، ص ٥٠٢ .

(٦) رسائل ابن الخصال : ص ٣١ .

(١) عصر الطوائف والمرابطين، تأليف: احسان عباس، دار الشروق، ط ٣، ٢٠٠٨ : ص ٢٩٧-٢٩٨ .

(٢) رسائل ابن الخصال : ص ٣٧ .

(٣) نفسه: ص ٦٨ .

ثالثاً : اساليب الختام :

١- الدعاء للمخاطب :

وكان بعض الكتاب الأندلسيين يختتمون رسائلهم بالدعاء للمرسل إليه . ومن ذلك قول ابن الحنَّاط في ختام رسالة كتبها على لسان البهار إلى المقتدر بن هود: " والله يمتعك برياض الآداب تجتني أزهارها ، وتنتقي خيارها.." (١).

ومن ذلك هذه الخاتمة لابن الخصال في رسالة لوصف السفرجل التي قال في بداية رسالته : " وقد بعثت منه مايقوم مقام الشاهد ، وينوب عن ثدي النَّاهد ، فدُونُكها محققة البدر ، مخلقة الصَّدر، فشمَّ أنفاسها ، وانزع لباسها ، فقد لبست الحسن باطناً وظاهراً ، واستوفت الطَّيب أولاً وآخرأ ، كأنها من شمائلك طُبعت ، أو من فضائلك ألفت وجمعت ، كلا إنها بذكرك غُذيت ، وعلى سجايك حُذيتوالله -عزَّ وجلَّ-يزيدك من الطَّيبات ، ويخصُّك بالبركات ، ويُبقيك للمكرَّمات ، بعزَّته وقُدْرته" (٢) .

٢- السلام وصيغته :

ومن ذلك ما ورد في رسالة ابن صاحب الصلاة يصف فيها جامع قرطبة ويقول في ختام رسالته : " لازلت لزنادِ النَّيلِ مُورياً ، وإلى آماذِ الفضلِ مجرياً ، والتحيَّةُ العبيقةُ الرِّيا ، المشرقة المحيا ، عليك ما طلع قمر ، ورحمة الله — تعالى — وبركاته ، انتهى" (٣) .

وأيضاً ما قاله في ختام رسالته في التحفظ من الفار : " وتبلغ من سلامي الأوفر أطر المسك الأذفر ، ينافحك بطيب ربَّاه ، ويطالعك بحُسنِ مُحَيَّاه، ما طلع من أفق بدر ، وانطبق على قلب صدر ، ورحمة الله وبركاته ." (٤)

(٤) الذخيرة : ق ١٢م ، ص ١٩٦ .

(٥) رسائل ابن أبي الخصال ، ص ٤٧٥ .

(١) رسائل ومقامات أندلسية : ص ٦٩ .

(٢) نفسه : ص ٦٥ .

وقول ابن أبي الخصال في رسالة له يصف فيها سيلاً عارماً حيث اختتمها بقوله: " وأقرأ عليك من سلامي أذكاه عبّقا ، وأعطره نسيماً مُنتشقا ، ورحمة الله وبركاته " (١)

وبعض الخواتيم اقتصرت على لفظ (والسلام) خالصاً من أي مكملات أخرى ، فمن ذلك قول أبي بكر بن عبدالعزيز في رسالته للرزور : " وصغرت حظاً من الأسماء ، والله يُيقّيك - عميم المحامد ، كريم المقاصد ، والسلام " (٢) .

٣- الصلاة على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

تتضمن بعض الخواتيم وخاصة في رسائل الرزوريات فمن ذلك ماجاء في رسالة ابن الخصال : " صلى الله على الرسول الأمين ، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين ، وعلى جميع الأنبياء والصالحين ، وعليه التوكل وبه نستعين ، وهو المؤيد المعين ، لا ربّ سواه ولا نعمى إلا نعماه ولا ندعو ولا نعبد إلا إياه " (٣) .
ومن ذلك أيضاً في رزورية ابن أبي الخصال : " صلى الله على من حضّ على الإنفاق ، وحبب معالي الأمور ومكارم الأخلاق ، ما لبست الشمس حلة الإشراق ، وعقد الليل حبة الإطراق ، وزرّت على الحمام قلائد الأطواق " (٤) .

الجمال الدعائية والمعتضة :

لقد أكثر الكُتاب الأندلسيون من استعمال الجمل الدعائية والمعتضة في رسائلهم بصورة عامة ، ذلك أنّ اللون من الجمل يعتبر أصلاً من أصول التعبير الأدبي لدى الكُتاب في المشرق والأندلس ، وتقوم عليه الرسائل على اختلاف موضوعاتها وأغراضها (٥) . وقد استخدم الكُتاب هذا اللون من الجمل في رسائلهم

(٣) رسائل ومقامات أندلسية : ص ١٢٦ .

(٤) نفسه : ص ٨٧ .

(٥) رسائل ابن الخصال : ص ٣٨ .

(١) نفسه : ص ٢٤٥ .

(٢) إحكام صناعة الكلام : ص ٨١ .

الوصفية المستقلة أو التي تكون من ضمن الرسائل الإخوانية أو رسائل الصيد والرحلات .

فيقصد بالجمال الدعائية الجمال والعبارات التي تعبر عن التعظيم لله تعالى ، أو المتضمنة دعاء للمرسل إليه بالعزّ والسعادة وامتداد السلطان وطول البقاء والتوفيق وما إلى ذلك (١) .

أمّا الجمال المعترضة فيقصد بها تلك الجمال والعبارات التي ترد بين الكلام وغالباً ما تكون دعائية(٢) .

ونلاحظ ورود الصيغ الدعائية في أغلب سياق الرسائل العام ، وعلل ذلك أحد الباحثين بقوله : " أن النثر الأندلسي مُتسم بصورة عامة بالطابع الإسلامي مهما اختلفت المعاني وتباينت الموضوعات "(٣) .

ومن ذلك قول ابن خفاجة مخاطباً أحد إخوانه : " أطال أيُّها السيد بقاءك ، كما وصل عزَّتكَ وارتقاءك ، وأسنى مرتبتك .. وأعلاك كما أسنى مناقبك وجلالك .. " (٤) .

وقول ابن صاحب الصلاة في رسالة إلى بعض إخوانه يصف فيها جامع قرطبة : " لئن كان — أعزَّكَ اللهُ — طريق الوداد بيننا عامراً ، وسبيلُ الخطاب غامراً ، لوجب أن نقضَ ختمه ، ونرفضَ كتْمه .."(٥) .

(٣) نفسه : ص ٨٢-٨٧ .

(٤) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، فايز عبدالنبي فلاح القيسي نشره دار البشير عمّان : ص ٣٢٠ .

(٥) النثر الأدبي في الأندلس في عصر الطوائف والمرابطين : ص ٣٦٨ .

(١) الخريدة : ج ٣ ، ص ١٩١ .

(٢) رسائل ومقامات أندلسية : ص ٦٦ .

ومن معاني الدعاء التي عالجها الكتاب ضمن غرض الرسالة التحفظ على الكتب من عبث الفار وذلك لأهمية الكتب وأنها أنفس ما لدية وأحق بالصيانة فيبقى أسلوب الدعاء أنسب الوسائل لهذه الأهمية بالمحافظة .

وفي رسالة له أيضاً يوصي صاحبه بالتحفظ من الفار : " وفي علمك – أعزك الله – التي هي أنفس ذخائري ، وأسراها ، وأحفظها بالصيانة وأحراها ، وما كنت أرضى فيها بالتغريب " (١) .

(٣) رسائل ومقامات أندلسية : ص ٥٩ .

المبحث الثاني
البناء اللغوي

الوضوح والغرابة في الألفاظ :

الألفاظ وسيلة للتعبير عن الأفكار والمعاني ، وتبدو قدرة الأديب الإبداعية في انتقائه للألفاظ المعبرة عن كل فكرة أو معنى يجول في خاطره وفق ضوابط محددة ، وقواعد معينة أشار إليها النقاد - قديماً وحديثاً - في أكثر من مؤلف^(١) .
وقد امتازت ألفاظ الكتاب بعدد وافر من الظواهر وسوف أكتفي بأهم الظواهر التي امتازت بها الرسائل في وصف الطبيعة ومن أهمها الوضوح والسهولة في الألفاظ .

لا يخفى على من يمعن النظر في جملة من النصوص النثرية ، الطابع العام الذي تتسم به تلك النصوص من حيث سهولة الألفاظ ووضوحها وبعدها عن التعقيد والغرابة والوحشية وعن أكثر الصفات التي تخل بفصاحة الكلمة مما تعارف عليه علماء البلاغة وأشاروا إلى أمثلة وشواهد في مواضع عديدة من مؤلفاتهم. مثل تنافر الحروف وبشاعة اللفظة في النطق وبعدها عن الاستعمال المألوف، والغرابة ومخالفة القياس والكرهية في السجع وغيرها^(٢) .

وحين نستعرض موضوعات الرسائل النثرية في هذه الفترة لا نكاد نجد لفظاً يحتاج إلى عمق وتأمل أو رجوع إلى معجم أو وقفة طويلة وتأمل في معناه. يسري ذلك على كثير من موضوعات الرسائل النثرية.

ويُعلل اختفاء الألفاظ الغريبة والوحشية من المعجم اللفظي لكتاب الأندلس " أنها لم تعد تناسب المجتمع الأندلسي وذوقه الأدبي "^(٣) .

فالرسائل الوصفية مثلاً تكاد تكون كلها سهلة في موضوع وصف الطبيعة. بل إننا نلحظ السهولة في المناظرات والمفاخرات بين السيف والقلم وبين الأزهار مع أن المتوقع أن تكون هذه الموضوعات مما يجنح إلى الغموض والتعقيد بسبب

(١) الصناعتين : ١١٣ ، المثل السائر : ج١ ، ص ١٤٩ - ١٩٤ ، أسس النقد الأدبي : ص ٤٥٢ ٤٩٦ .

(٢) الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص٤٦ - ٥٣. وانظر ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ج٢، ص ٢١٠ - ٢٦٨، والقزويني، الإيضاح، ج١، ص ٢ - ٤ .

(٣) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس ، ٣٣٩ .

ما يتخلله من جدل واحتجاج وتفاخر وتنافس يقوم على المباهاة بالقول ومباراة في اللفظ وتصنع واضح متعمد^(١).

ويظهر طابع السهولة في الألفاظ في موضوعات الرسائل ذات الاتجاه الاجتماعي، كوصف الترف والمجون^(٢). ومن الأمثلة على ذلك قول أبي المطرف بن الدباغ في وصف مجلس لهو وطرب عقده صحبه في إحدى الرياض وقد انتظم الشمل. "في مشاهد جمعت أشتات الأنس، واحتفلت من منى النفس، وتناولت الراح من يد القمر والشمس، بين بساتين نشرت عليها نُسُتُرُ ألويتها، وأهدت إليها صنعاء أوشيتها..."^(٣).

فلقد جاءت ألفاظ هذا النص سهلة ومفرداته واضحة معبرة عما يشعر به الكاتب من فرح وسرور ونشوة وطرب.

وتكاد تكون معظم الرسائل الوصفية سهلة الألفاظ واضحة المفردات في: الربيعيات، والروضيات، والزهريات، والثماريات، ووصف هطول المطر بعد القحط، ووصف الحيوان، ووصف الرحلات^(٤).

ومن ذلك قول عبد الوهاب بن حزم في الربيعات " فالأرض قد نشرت ملاءها ، وسحبت رداءها ، ولبست جلبابها ... وبرز الوردُ من كمامه ، واهتَز الروض لتغريد حمامه ، والأشجار قد نشرت شعورها ، وهزّت رؤوسها ..."^(٥)، فجاءت ألفاظ النص واضحة سهلة معبرة عن نفس الكاتب .

ونلاحظ شخصية الزرزور عند ابن المرخي تشبه في أوصافها شخصية المقامات من حيث اصطناع الأدب حرفة للتكسب ، وهو في زرزوريته يميل إلى

(١) النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، حازم عبدالله خضر، ص٤٤٧.

(٢) القلائد: ص١٠٨، الذخيرة: ق١ م٢، ص١٦٠، الخريدة: ج٢، ص٢٢٥، ٢٩٨.

(٣) الذخيرة: ق٣ م١، ص٣٠٠ - ٣٠١.

(٤) القلائد: ص١٠٣، مطمح الأنفس: ص٣٠٧، الذخيرة: ق١ م١، ص١٥٤، ٥٠٢، الخريدة: ج٢، ص٢٩٨، النفح:

ج١، ص٥٣٤.

(٥) الذخيرة: ق١ م١، ص١٤٥.

الوضوح في الفكرة والأسلوب ويبدو أقل استخداماً للرمز ممن سبقوه ، : " وهذا صنف من الطير تقنعه البذور ، ويكفيه المطعم المنزور"^(١) .

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن الحنّاط في وصف أحد المتنزهات الجميلة وقت الربيع: "ونحن إذ ذاك بحيث تتضاحك الورد والبهار، وتفاوح النور والأنوار، وأرضنا بمخضر نبتاً صاغ النور تاجه، وحاك القطر دباجة، والريح تصفق، والغصن يتثنى، والقنبرة تصرصر، والبلبل يتغنى..."^(٢) . فجاءت ألفاظ هذه الرسالة سهلة واضحة منسجمة مع غرضها ، معبرة عن سمات الجمال في يوم من أيام الربيع البهيجة ، ودالة على ما كان يحس به الكاتب من فرح وسرور عظيم بسحر الطبيعة^(٣) .

ومن الأمثلة أيضاً قول لأبي جعفر بن أحمد ، وقد أهدي ورد : " زارنا الوردُ بأنفاسك ، وسقانا الأنس من كاسك ، وأعاد لنا معاهد الأنس جديدة وزفَّ إلينا من بنات البرِّ خريدهً فأحمرَّ حتى خلته شفقاً ، وابيضَّ حتى أبصرته من النور فلقاً ، وأرج حتى كأنَّ المسك من ذكائه ، وتضاعف حتى قلتُ لورد من حيائه ، فليتصور سُكري في مرآه"^(٤) . ولا يجد الباحث في هذا النص ، وفي أغلب نصوص الرسائل الوصفية صعوبة في الألفاظ أو غرابة في المفردات .^(٥)

وأغلب نصوص الرسائل الوصفية لا يوجد فيها صعوبة في الألفاظ أو غرابة في المفردات وعلى الرغم من أن طابع السهولة والوضوح في الألفاظ والمفردات قد شمل معظم موضوعات أدب الرسائل وأغراضه إلا أن بعض

^١ الذخيرة ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

(١) الخريفة: ج ٢ ، ص ٢٩٨ .

(٢) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس : ص ٣٤٢ .

(٣) الذخيرة : ق ٣ م ٢ ، ص ٧٥٦ .

(٤) انظر أمثلة على سهولة الألفاظ وبعدها عن الغرابة في الرسائل الوصفية : في البديع ص ٨ ، ٢٢ ، ١١٣ . القلاندي :

ص ١٠٣ ، مطمح الأنفس : ص ٣٠٧ ، الذخيرة : ق ٢ م ٢ ، ص ١٥٤ ، ٥٠٢ ، ق ٢ م ١ ، ص ٢٨٩ ، ق ٣ م ١ ،

ص ٢١٤ ، ٣٦٤ ، ق ٣ م ٢ ، ص ٥٤٥ ، ٧٦١ ، الخريفة : ج ٢ ، ص ٢٩٨ ، النفح : ج ١ ، ص ٥٣٤ .

نصوص الموضوعات يتسم بصعوبة الألفاظ وتوعرها وخاصة في عدد من موضوعات رسائل الزرزيورات^(١).

ومن الأمثلة على صعوبة الألفاظ وغرابتها في رسائل الزرزيورات قول أبي الحسين ابن سراج مخاطباً بعض أهل عصره، يشفع لرجل يعرف بالزرزير: "ويصل بك-وصل الله علوك-وكبت عدوك، شخص من الطيور يعرف بالزرزير، أقام لدينا أيام التحسير^(٢)، وزمان التبلى بالشكير^(٣). فلما وافى ريشه، ونبت بأفراخه عشوشه، أزمع عنا قطوعاً^(٤) وعلى ذلك اللدن تدلياً ووقوعاً^(٥)..."^(٦) إن هذا النص على صغره مليئاً بالألفاظ الغريبة الخاصة بالطيور من تحسير وتذكير وقطوع ووقوع.

ومن ذلك ما كتبه الكلاعي في رسالته التي قصد بها العتاب: "إن عجباً بر الوزير بالزعانف والزرزير^(٧)، وخطره على قلب يكاد من الشوق إليه يطير، ومن الظماً يشنكي قطعاً^(٨) ويستطير، وإنه مع عرضه على نار الجفاء غدواً ونبم مضجع الاحتفاء به هُدواً، ووصمة التقصير في جزائه، وممارسة جزع أرزائه واختزائه^(٩)، إن لهج فبذكره، أو هزج فبأفانين شكره، فكيف به لو ضاحك من خفي برّه فرض شؤبوب^(١٠) شنان، عمر بذرب عز إليه نوع الإنسان"^(١١).

فمن الألفاظ الغريبة في هذا المقطع وتحتاج لإيضاح قوله: "قطعاً، اختزائه، شؤبوب، شنان، ذرب".

(١) الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٤٧.

(٢) التحسير: إلقاء الريش الضعيف (اللسان: مادة حسر).

(٣) الشكير صغار الريش (اللسان: مادة شكر).

(٤) القطوع: يقال الطير تقطع قطوعاً، إذا جاءت من بلد إلى بلد في وقت حر أو برد (اللسان: مادة قطع).

(٥) الوقوع: يقال وقع الطير يقع وقوعاً نزل عن طيرانه (اللسان: مادة وقع).

(٦) الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٤٧.

(٧) يريد العوام من الناس

(٨) القطع: الظماً، وأقطعت السماء إذا انقطع مطرها (اللسان: مادة قطع)

(٩) الاختزاء: الصبر على البلوى، خزا نفسه خزواً: ملكها وكفها عن هواها (اللسان: مادة خزا)

(١٠) الشؤبوب: الدفعة منالمطر وغيره (اللسان: مادة شأب)، والشنان: والماء البارد (اللسان: مادة شنن).

(١١) الذخيرة ق ٢ م ١، ص ٣٥١.

وكذلك ما قاله ابن المرخي في مقدمة رسالته التي يتشقق بها : " رب منتم إلى غير صنفه غيضه أشبّ ، وقوله غير مؤتشب ، و دواه في قلة ما لدية من نشب ^(١) ، ولذلك ، تسمى حامل هذه الرقعة بالزرزور ^(٢) "

الجزالة :

واتسمت بعض نصوص موضوعات أدب الرسائل وأغراضه بالجزالة، ولا يقصد بالجزالة في الألفاظ أن يكون وحشياً متوعراً، بل يقصد بالجزل أن يكون متيناً على عنوبته كما يذكر ابن الأثير ^(٣) .

وقد استعمل الكتاب الألفاظ الجزلة في بعض موضوعات الرسائل الوصفية فمع سهولة ألفاظها ، ووضوحها تتسم بالجزالة والفخامة .

ومن الأمثلة على ذلك رسالة ابن الحناط في وصف الصيد ومطاردة كلب لقطيع من الحمر الوحشية، حيث يقول: "وما زلنا في ذلك نتحول على تلك المنازل، ونتجول في تلك الخمائل، حتى ثار من حمرها أفراد حران ^(٤)، كأنهن أولاد غزلان، قد جمع الأجل منها ما افترق، وأخرجها من كل نفق فأخذت في الهرب، وأخذنا في الطلب، إثر كل رواع ينعطف انعطاف البرة، ووثاب يجتمع اجتماع الكرة... ثم أشلينا ^(٥) كلباً حللناها من ساجوره، ^(٦) وخليناه إل مسوره... من القب ^(٧) الطامحة العيون، الهورت ^(٨) اللاحقة البطون، معرق في نجابته، معم مخول في فراهته، فغشيه كالغيث، وأخذه كالليث، ففقر فقاره بشفاره، وقد قميصه بأظفاره،

(٤) النشب : المال والعقار (اللسان مادة : نشب)

(٥) رسائل ومقامات أندلسية : ٨٦ ، وانظر ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٦) المثل السائر: ج١، ص٢٦٨ .

(٧) نفسه: ج١، ص٢٦٨ .

(١) أشلينا: أشلى دابته اراها المخلاه لتأنيه، والمراد هنا أرى الصيد لكلبه ليطلبه (اللسان: مدة شلي).

(٢) الساجور: القلادة أو الخشبة التي تودع في عنق الكلب (اللسان: مادة سجر).

(٣) القب: جمع أقب، يريد أنه في اندفاعه أسرع وأمضى من الخيل الضامرة المقوسة الزهور، وهي أسرع جرياً (اللسان: مادة قيب).

(٤) الهورت: ساعة الشدق (اللسان: مادة هرت).

وتلاحقنا به وقد أكبَّ على صيده وقعد، كأنها فريسة بين ساعدي أسدٍ، فرويَّناه من دمه، وخلينا بينه وبين أدمه...^(١)

فألفاظ هذه الرسالة تتميز بالجزالة والمتانة على الرغم مما تتسم به من سهولة ووضوح وبعد عن التعقيد والغرابة.

وما جاء في رسالة لأبي جعفر بن أحمد في المفاضلات بين الأزهار الذي أعجبَ بالأنوار على اختلاف أشكالها، يقول: "فَمِنْ أنوارِ أِينعت، وأزهار تتوعت: فَمِنْ وَرْدٍ كتوريد الخدود، ونرجس كمقل الغيد، وسوسن كأنه راحة تثنت البنان على قراضة من العقبان... وخيري كأنما استعار شكله، أو اختار بذلة المحزون، وبنفسج حكى زرق اليواقيت..."^(٢). فأتى هذا المقطع يحمل صورة وصفية رائعة للأزهار وقد عبر عن هذا الوصف بألفاظ جزلة وذلك في قوله: "مقل ، الغيد ، قراضة ، العقبان ، بذلة ، المحزون ."

ومن ذلك رسالة ابن خفاجة التي كتبها يصف فيها جبلاً: "وصافحت النجوم هضابَه ، طمَحَ بطرفه ، وشَمَخَ بأنفه ، وسال الوقار على عِطْفِه ، فهو يعبس ، ولا يَنبِس ، كأنها أطرق به اعتبار ، أو احتبى منه جَبَّار ، وقد لاث من غمامة ، عِمامة ، وأرسل من رُبابة ذُؤابة ، تُطرزُها البروق الخواطف ، وتهفو بها الرياحُ العواصِف.^(٣)"

أتى هذا المقطع بصورة رائعة لوصف الجبل وقد عبر الكاتب بألفاظ جزلة بقوله: "طمح ، بطرفه ، شمش ، بأنفه ، الوقار ، يعبس ، لا ينبس ، احتبى ، جبار ، تطرز ، الخواطف ، العواصف."

ومهما يكن من أمر أستطيع القول بأن ألفاظ الرسائل الأندلسية كانت منسجمة مع موضوعاتها وأغراضها ومعانيها فكانت تتسم بالسهولة والوضوح في الرسائل الوصفية وتميل إلى المتانة والجزالة في رسائل المفاضلات والمفاخرات وتجنح إلى الغرابة والتعقيد في رسائل الزرذوريات.

(٥) الخريدة: ج ٢، ص ٣٠٢-٣٠٣.

(٦) الذخيرة: ق ٢٣، ص ٧٦١.

(١) نفسه: ق ٤ ج ٢، ص ٦٢٨.

وربما أن ظروف البيئة الأندلسية ، وجمال الطبيعة فيها مما يستدعي
السهولة والميل نحو الألفاظ الواضحة وتجنب الإيغال في المفردات الصعبة التي
تعطي صورة من التكلف والتصنع وتعبر عن التواء وتقصر في التفكير والطبع
الاجتماعي والأدبي وذلك ما لا يتفق وحال الأندلسيين الذين يميلون نحو السهولة
وينفرون من التعقيد في كل شيء وكل أسلوب من أساليب حياتهم وبخاصة في
قضايا الفكر والأدب.

الأساليب

لقد دعا النقاد إلى الاهتمام بالأساليب الواضحة والتراكيب المستقيمة لأن من أخص صفات الأسلوب الجمال والوضوح والقوة ، والأديب المتفوق هو الذي يتخير في أسلوبه ، ويبتعد عن الكلام الغامض ، والأسلوب المضطرب الذي منشأه المعنى الغير واضح والألفاظ المتكلفة والمستهجنة ، لأن خفاء المعنى في نفس الأديب ينتج عنه ضعف التأليف في الأسلوب ، فيصرف الخواطر عن قراءته والتأثر به بخلاف الكلام السهل الواضح ، الذي يحرك دواخل النفس ، ويثير مكامن الإحساس^(١) .

ويتطلب الاهتمام بالألفاظ المفردة اهتماماً بتركيبها وانتظامها في سياق الكلام لأن تركيب الألفاظ واتساقها أعظم قدراً من اللفظة المفردة ذلك أن " تفاوت التفاضل يقع في تركيب الألفاظ أكثر مما يقع في مفرداتها ، لأن التركيب أعسر وأشق ، ألا ترى ألفاظ القرآن الكريم من حيث انفرادها قد استعملها العرب ومن بعدهم ، ومع ذلك يفوق جميع كلامهم ويعلو عليه ، وليس ذلك إلا لفضيلة التركيب"^(٢) .

إن النظرة العامة العجلى تبين أن النماذج الوصفية – على اختلاف موضوعاتها قد استطاعت تصوير الحياة وترجمة علاقتها بالإنسان وتفاعله بها، ودلت على ذوق رفيع وحس مرهف وقدرة على صياغة الأفكار بإنطاق الجماد والنبات والأزهار^(٣) . واختلاف الأساليب بين الكُتَّاب أمر وارد لاختلاف الطباع والثقافات ، والدوافع الذاتية ، والظروف المعاشة فنجد لكل كاتب أسلوباً يختلف عن الآخر .

ومن السمات الأسلوبية للكُتَّاب في رسائلهم الوصفية المزوجة بين الخبر والإنشاء ، وإبراز دورهما في تأكيد المعنى .

(١) النقد العربي الحديث ومذاهبه ، تأليف لمحمد عبدالمنعم خفاجي ، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني –

القاهرة ، ط٣ (١٤١٣هـ - ١٩٩٢) . ص ٨١ .

(٢) المثل السائر ، ج٢ ، ص ١٥١ .

(٣) النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، حازم عبدالله خضر، ص ٢٤٩ .

ويتم التنويع بين الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي في القطعة النثرية ،
ففي الأسلوب الإنشائي تتم الاستعانة بأدوات التوكيد المتنوعة ومنها (قد التحقيقية،
وإن المشددة ، وحروف القسم ، ولام الابتداء وغيرها) وذلك في معالجة الفكرة
التي تحتاج إلى تأكيد^(١) .

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن المرخي في رسالته في الزروريات : "وقد
زارك سائلاً ، وأحلّ عندك نائلاً ، وأنت تطيع فيه الكرم ، وتدفع به البرم^(٢) ،
وتسمع ما لديه من جد وهزل "^(٣) .

ويحتفي غير واحد من الكُتّاب بضروب الإنشاء في أساليبهم فيلاحظ
استخدام أسلوب الأمر ، النهي ، والاستفهام وغيره ، في رسائلهم الوصفية ، و قد
يفرد مقطعاً كاملاً بضرب واحد من ضروب الإنشاء كاستخدام الأمر ، ومن ذلك
أيضاً قوله في رسالة في الزرور: " فاستنزلوا بالدعاء ديمتها ، وحققوا بالتأمين
عزيمتها ؛ وخذلوا هذا البيت الصّالح تخليداً وقلدوا سَمَط^(٤) النعمة تقليداً؛ فأمدّوه -
رحمكم الله - من ضمائر الأرجة بعرف ، وصلوه من التأمين بحرف ؛ ليحظى
بالوصول ، ويبلغ مدى القبول "^(٥) .

ومن الأمثلة أيضاً على استخدام الأمر ما جاء في رسالة لابن أبي الخصال
في الشكر على نزول الغيث بعد اتصال القحط : " انظر إلى الدِّيم السّواكب^(٦) ،
واسبح في لجج سيولها ، وارتع في مجرّ دُيولها ، وسبّح باسم ربِّكَ العظيم الذي
(قذف بالحقّ على الباطل) ، وأعاد الحُلّيَّ إلى العاطل ، فبرودُ الظّواهر
مُخضرة^(٧)" .

(١) الرسائل الإخوانية عند كُتّاب الأندلس في القرن السادس الهجري ، ابتسام الصبحي : ص ٢٩٩ .

(٢) البِرْم : السّام والملل (اللسان مادة برم)

(٣) رسائل ومقامات أندلسية : ص ٨٧ .

(٤) السَّمَط : القلادة .

(٥) رسائل ابن الخصال : ص ٣٧ .

(٦) كانت العرب في الجاهلية تنسب المطر إلى أنواء الكواكب ، يجعلون الغيث من فعلها (النهاية : ن و أ) .

(٧) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٢٧٦ .

ومن الأمثلة على استخدام أساليب الاستفهام قول ابن أبي الخصال : " وكيف تَقَلَّبْتِ في إنعامكم أنقلب ، وعلى أرجائكم أنحطُّ وأتصوَّب ، لازلتُم تُمدِّحون بكلِّ لسان ، وتعمُّون الحيوان بالإحسان ، وتسمعون من القول أحسنه ، ويجر الثناء إليكم رسنه ، ويُطيل الجار في حمى أكنافكم وسنّه " (١) .

ويُلاحظ في بعض الرسائل تنويع الكُتَّاب في استخدامهم لأدوات الاستفهام، والتي خرجت عن معناها الأصلي إلى أغراض أخرى تتصل بالانفعالات النفسية حسب السياق العام للفكرة والموضوع الذي يعالجه الكاتب في رسالته .

ومن أدلة الأمثلة على ذلك ما جاء في رسالة الهوزني التي يصف فيها الزر زور : " خلع الشكير (٢) ، حتى رفض الصفير ، وهجر الرء الدائمة التكرير ، وتحلَّى في المنطق بحلية الإنسان ، ودخل في من عِلِّم البيان ، وزايل عميَّة البلبل والورشان ، وأفصح تسبيحاً وتكبيراً ، وخرج من جملة من قال تعالى فيه { ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنَّه كان حليماً غفوراً } (٣) ، فإن طلبت - أعزك الله - اسمه مكبراً ، وجدته لفظاً من الزيادة مكرراً ؛ أقام عندنا زماناً ، لا يتألف إلا رنداً أو باناً ، ولا يلتقط إلا عتاباً أو سيسباناً ، يتدرج في البساتين ، يتطلب العنب المنتقى والتين " (٤) .

اتكأ البناء الأسلوبي فيها على أساليب الاستفهام المتنوعة ، والتي خرجت معانيها الأصلية إلى أغراض أخرى وظفها الكاتب لصالح النص الذي انتهج فيه نهجاً حوارياً من خلال الأخذ والرد ، والنفي والإثبات ، في سطور الرسالة كي يصل إلى غرضه منها ، وهو انتزاع اعتراف صريح من أهل اشبيلية بضعفهم العام في معظم الحياة العلمية ، والاقتصادية ، والحربية ، والاجتماعية ، وإثبات

(١) نفسه : ص ٢٤٥ .

(٢) الشكير : أول ما ينبت من الريش (اللسان مادة : شكر) .

(٣) سورة الإسراء : آية ٤٤ .

(٤) الذخيرة ق٢م١ : ٧٥٩ .

صريح بتفوق صديقه أبي بكر بن صقلاب على أبناء عصره في ذلك الزمان ، فهو علم الأندلس قاطبة ومدار الفخر في اشبيلية كلها^(١) .

ومن الأساليب التي استخدمها الكتاب اسلوب النداء فمن الأمثلة على ذلك ما قاله ابن الجد في رسالة يصف فيها الزرزور : " حسنتُ لك يا سيدي أبا الحسين^(٢) ضرائب الأيام ، وتشوّفت نحوك غرائب الكلام ، واهترتْ لمُكاتبتك أعطاف الأقلام ، وجادت على محلك أطاف الغمام "^(٣) . فخرج النداء هنا لغرض الدعاء .

ومن الأساليب التي استخدمها الكتاب اسلوب النهي ومثال ذلك ما جاء في رسالة الزرزور لابن الخصال : " فلا تقتلوا أولادكم من إملاق .. "؛ فوعده مأتى ، وأمره حتمّ مقضي رجلٌ أوى إلى الله ، فأواه الله ، ورجلٌ استحي فاستحي الله منه ، ورجلٌ أعرض فأعرض الله عنه . كن أحد الرجلين فتهدى ولا تكن الثالث فتردى "^(٤) .

ومن السمات الأسلوبية في الرسائل الوصفية استخدام المشتقات على اختلاف أنواعها ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رسالة ابن صاحب الصلاة في التحفظ من الفار : " الود قائم رسمه ، لائح وسمه ، وإن كانت الأيام قد أزاحتني عن قُربك ، وأظمأتني إلى شربك ، فإنها لم تُلحق وثاقه عهدنا انحلالا ، ولا صحة وُدنا اعتلالا ، ولو جرت الأيام على اقتراحي ، وأطلعت من عُقل الأشغال سراجي ، لآثرت مُجاورتك ، واخترت محاورتك ، فإنك بحر تُلَفظُ بالجواهر غواربه ، وتعذب للوارد والصادر مشاربه ، فيصدر عنك وقد ملأ من الدُر حقايبه، وأثقل من البرِّ ركائبه "^(٥) .

(١) الرسائل الإخوانية عند كتاب الأندلس في القرن السادس الهجري : ص ٣٠١ .

(٢) يقصد الحسين بن سراج .

(٣) الذخيرة ق ١م ٢ : ص ٣٤٨ .

(٤) رسائل ابن الخصال : ٢٣٣ - ٢٣٤ .

(٥) رسائل ومقامات أندلسية : ٥٩ - ٦٠ .

يتصدر المشتقات في هذا المقطع اسم الفاعل : (قائم ، لائح ، وارد)
والمصادر : (مجاورتك ، محاورتك) وصيغ الجمع : (أقدار ، أشغال ، غواربه ،
مشاربه ، حقائبه ، ركائبه)^(١).

ومن استخدام المشتقات ما جاء في رسالة ابن عُذرة : " وفاح عند الفضِّ
كما فاح المسك الأنمُّ ، فنظرنا إلى الحدائق مسطورة ، والخمائل منشورة ، واللالئ
منظومة ومنثورة ، والحكم البارعة جائلة في عنانها ، زاهية بإحسانها ، متفرقة عن
مباسم إتقانها وافتنانها ، شاهد لذلك الزَّهر بذكائه ، ولذلك الحسن باستوائه وانتهائه
دالة على ذلك القدر باعتلائه " ^(٢).

فتكثر في هذا المقطع المشتقات المتنوعة التي منها : (البارعة ، جائلة ،
زاهية ، مسطورة ، منشورة ، منظومة ، الفض ، إحسانها ، إتقانها ، افتنانها ،
الحسن ، استوائه ، انتهائه ، الحدائق ، الخمائل) وقد برزت معاني الكتاب هنا في
صور محاكية للطبيعة ، ومثيرة للخيال^(٣).

ومن الظواهر الأسلوبية البارزة في رسائل الكتاب التقديم والتأخير بين
أركان الإسناد ، فإن كل تقديم وتأخير لابد أن تكون فيه زيادة للمعنى أو تأكيد ، وقد
قدّم الكتاب بعض أركان الجملة على بعض لأغراض عدة منها توكيد المعنى
والعناية به ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في رسالة لابن الخصال في وصف زمن
الوصول لحطاب صديقه : " .. وافى الهلال قد أكمل قرصه المحاق ، وأضنت
علته المعتادة شخصه فما تبيّنه الحداق ، إلا باقية كالعلامة .. " ^(٤). فقدم الكاتب هنا
المفعول على الفاعل ، فهو يريد من مخاطبه أن يستشف وصفاً طريفاً ، ومعنى هاماً
في الوقت ذاته ، فقدم المفعول (قرصه) على الفاعل (المحاق) ، ليتبين للمخاطب

(١) الرسائل الإخوانية عند كتاب الأندلس في القرن السادس الهجري : ٣٠٥.

(٢) رسائل ومقامات أندلسية : ٢٨٢.

(٣) الرسائل الإخوانية عند كتاب الأندلس في القرن السادس الهجري : ٣٠٥.

(٤) رسائل ابن الخصال : ١٦٢.

مدى تأثر الكاتب ببعده عن أصدقائه ، فهو يشبه ذلك الهلال الذي اضمحل نوره ولم يبق سوى جزء بسيط ، لا تكاد تلمحه العين^(١) .

ومن الأساليب التي أهتم بها الكتاب ترتيب عناصر تركيبه على نسق قريب من النفوس ، مع الإصرار على تأكيد المعنى وإيصالها للمخاطب ، هو السبب وراء استخدامهم لأسلوب التفضيل بكثرة ، ولا تكاد تخلو رسائل الكتاب من صيغة التفضيل (أفعل) ، ذلك أنه وجد في هذا الأسلوب وسيلة طيبة وفاعلة في ذات الوقت لإفادة المتلقي كفاية عن أحوال الموصوفات ، وإثبات الصفات إلى المعنيّ بها ، فنجد في مقدمة الرسائل وخواتيمها^(٢) ، بل وحتى في معرض الحديث والوصف استخداماً لائقاً لصيغة التفضيل ، ومن ذلك ما قاله ابن أبي الخصال في رسالة الزرزور حيث جاء اهتمامه المؤلف بالأوصاف وتأثيرها ، مستخدماً عدداً وافراً من صيغ التفضيل في عبارات يسيرة : " ما أحسن تشاكل الأمور ، وما أليق اللبس بالثغور ، وأتقن الحكمة في صيانة الأب بالفشور ، وما أبعد الزرزور من الطرطور .."^(٣) .

(١) فن الرسالة عند الكاتب الأندلسي ابن أبي الخصال "دراسة في أبعاد المضمون وخصائص الشكل ، أمل عبدالله زين العابدين برزنجي ، ص ٢٦٩ .

(٢) فن الرسالة عند الكاتب الأندلسي ابن أبي الخصال "دراسة في أبعاد المضمون وخصائص الشكل: ص ٢٧١ .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال :ص٢٣٩ ، وأمثلة أخرى ص ٣٥٣ ، ٤٧٢ ، ٥٠١ .

الاقتباس والتضمين

يعتبر القياس والتضمين من الأساليب البلاغية ، والجماليات الفنية التي شاعت في النتاج الترسلّي لكُتّاب الأندلس ، وفي الرسائل الوصفية على وجه الخصوص .

وقد تنوعت المصادر التي استقى منها الكتاب هذه الجماليات التي تزينت بها رسائلهم الوصفية ، وتباينت طرائقهم فيها ، فمن هذه المصادر :

أولاً : القرآن الكريم :

كان للقرآن أثر كبير في أساليب الكُتّاب ، فهو مثال للفصاحة والبيان لدى عامة الكُتّاب ، وقد شملت ظاهرة الاقتباس من القرآن الكريم معظم موضوعات أدب الرسائل في الأندلس وأغراضه ، فقد اهتموا بإبراز ثقافتهم المتعددة المشارب، وصَبَّها في كتاباتهم ، لتعطيها الديباجة ، والأناقة اللفظية ، زيادة على تعميق المعاني التي يريدون إبرازها وإظهارها خلال تلك النصوص^(١)، ومن ذلك الرسائل الوصفية .

وقد كان اقتباسهم من القرآن الكريم على وجهين : أولهما إيراد الآيات بصيغتها ولفظها وثانيهما إيرادها دون النص عليها بصيغتها^(٢) .

ومن أمثلة على الوجه الأول : ذلك ما نلحظه في رسالة لابن شهيد ، يقول فيها : " طال انتظارنا لك ! وتقَدَّ مني وسرتُ حتّى انتهيت إلى دار ذات أجوان ، قد غشيها دخانٌ ، كقطع العنان ، تعبق منها صُنان ، من زرنيجٍ وكبريت ، وزنجفور وأنزروتِ ، فتذكرتِ { يوم تأتي السماء بدخانٍ مُبين ، يغشى النَّاسَ هذا عذابٌ أليمٌ }^(٣)"^(٤) .

فالكاتب استحضر نصاً قرآنياً ليدلّل به على كلام سابق أدرجه ضمن رسالته ، فهو يتحدث عن دار كبيرة ذات أجوان وقد غشيها الدخان حتى أصبحت كالعنان

(١) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، القيسي : ص ٣٢٧ .

(٢) نفسه : ص ٢٧ .

(٣) سورة الدخان آية رقم ١٠، ١١ .

(٤) الذخيرة ، ق ١م ، ص ٢٢١ .

، ولها روائح كريهة تشبه رائحة الزرنيج والكبريت ..، وعند هذا المشهد تذكر قول الله تعالى الذي يوحي بيوم القيامة حيث تنشق السماء ويخرج منها دخان كثيف يغطي الأرض ومن عليها ، واستحضر الكاتب هذه الصورة ليدلل ما شاهده في تلك الدار من موقف يتشابه مع هذا النص القرآني من خوف ورعب كيوم القيامة .
ومن ذلك ما ورد في رسالة : " .. ولا من الأغصان اعتدالاً ، ولا من الروض أردانا ، ولا من الأطباء أجفاناً، ولا رنت إحداهنّ عن جفن همّ بالتهويم ، فنّبّه النديم ، ونظر نظرةً في النجوم فقال إني سقيم " (١).
لقد استفاد الكاتب من ألفاظ القرآن الكريم في سورة الذاريات {فنظر نظرةً في النجوم فقال إني سقيم} (٢).

ومن الأمثلة على الوجه الثاني : ما ورد في رسالة ابن الحناط ختمها بمشاهد يصف فيها الخمرة وساقياها ، حيث يقول : " .. تنفّسَ الصبح من طوقه ، وعسعس ليل الشعر من فوقه" (٣). لقد استفاد الكاتب من ألفاظ القرآن الكريم في سورة التكوير حيث يقول تعالى : { والصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ } (٤) ، { والليل إذا عسعس } (٥) ، فتنفّس الصبح يعني دخول وقت الصبح بروح ونسيم ، وعسعس الليل إذا أقبل وأدبر (٦).

فصور الكاتب الساقى الذي يدور بالخمرة على شاربياها بالصبح الذي يحمل معه النسيم العليل ، وإذا أدبر هذا الساقى كان الليل في ظلمته ، حتى الخمرة كانوا يسمونها بالصبح دلالة على تعلقهم بها ، حيث قرن الكاتب ألفاظه في وصف الغلام بالألفاظ القرآنية المناسبة لذلك الوصف .

(١) الذخيرة ، ق ٣م ، ص ٢٤٢ .

(٢) سورة الصافات ، آية ٨٨ .

(٣) الخريدة ج ٢ ، ص ٢٩٩ .

(٤) سورة التكوير ، آية ١٨

(٥) سورة التكوير ، آية ١٧ .

(٦) زبدة التفسير من فتح القدير ، الشقر ، ص ٧٩٤ .

ومن ذلك قول لابن أبي الخصال في زروريته : " خلق الخلق أطواراً ،
 وجعل لهم آمالاً وأوطاراً ، .فماش على رجلين ، وباطش بيدين .. ، وتضرب لكم –
 أمم أمثالكم ، من الحمام نصيبها ، والأقدار كما تُصيكم تصيبها"^(١) .
 فالكاتب استفاد من ألفاظ القرآن الكريم بقوله "خلق الخلق أطواراً" من قوله
 تعالى : { وقد خلقكم أطواراً }^(٢) ، وأيضاً بقوله "فماش على رجلين" حيث اقتبسها
 من قوله تعالى : { .. ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع
 }^(٣) ، وبقوله "أمم أمثالكم" اقتبسها من قوله تعالى : { وما من دابة في الأرض
 ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم }^(٤) . ولقد وظف الكاتب أوصاف الزرور
 باقتباس من القرآن ما يناسب المعنى^(٥) .

الشعر:

مما يلحظ من خلال النصوص النثرية الوصفية أن أساليبها قد تنوعت بين
 الشعر والنثر فلقد كلف كُتَّاب الأندلس تضمين الأبيات والمعاني الشعرية ضمن
 سياق الرسالة العام حتى عدَّها الكلاعي من الحلى الأسلوبية الأنيقة التي تزين بها
 الرسائل : " من الكتاب من يُحلي رسائله بحل المنظوم ، ويرصع كلامه بنثر
 الموزون ، وهي طريقة للكتاب أنيقة :

ألا إن حلّ الشعر زينة كاتبٍ ولكن منهم من يحلُّ فيعقد^(٦)"

ويعتبر الشعر من الركائز المهمة في الثقافة العربية بوصفه منجماً زاخراً
 بالمعاني والمعارف^(٧)، ومظهراً من مظاهر الإجازة التي امتاز بها كُتَّاب الأندلس،
 وإلى ذلك أشار الكلاعي بقوله : " وكان المجيد منهم كثيراً ما يُضمّن في رسائله

(١) رسائل ابن الخصال، ص ٢٣٤ .

(٢) سورة نوح آية ١٤ .

(٣) سورة النور آية ٤٥ .

(٤) سورة الأنعام آية ٣٨ .

(٥) انظر أمثلة أخرى للاقتباس من القرآن في رسائل ابن الخصال، ص ٢٣٤-٢٣٧-٢٣٨-٢٤٠ .

(٦) إحكام صنعة الكلام : ص ١٤٤ .

(٧) تاريخ الترسل النثري عند العرب : ص ٢٨٧ .

أشعاره وأشعار غيره ، ففتاوت الكتاب في الأخذ من معينه كلاً بحسب ثقافته وسعة إطلاعه ، ومهارته الفنية في صناعة الكتابة فمن مذاهب الكتاب الفنية في تضمين الشعر إيراد البيت الشعري بنصه دون تغيير ، والاستعانة به كشاهد مُكَمَّل للمعنى المطروق والفكرة المعالجة^(١).

ولقد كان الكتاب الأندلسيون يضمنون رسائلهم أبياتاً وقصائد شعرية، وذلك حسب ما يقتضيه حال الخطاب، وما يلائم سياق الرسالة وظرفها الخاص. وقد أبدعوا في ذلك حتى لو نثر شعرهم لكان قريباً من نثرهم، ولو نظم نثرهم لكان شبيهاً من شعرهم. وكانوا يفعلون ذلك للتدليل على ما يسوقونه من معان، أو للتأكيد على ما يبسطونه من أفكار، ولم يحظ بهذه الميزة إلا الكتاب المبرزون والمبدعون، كما يشير إلى ذلك الكلاعي بقوله: "كان المجيد (منهم) كثيراً ما يُضمّن رسائله أشعاره وأشعار غيره"^(٢).

ويظهر من قول الكلاعي أن تضمين الشعر والتمثل به كان على صورتين، أولهما الاستشهاد أو استفتاح الرسائل بأبيات شعرية لشعراء آخرين، كانوا في الغالب من المشاركة. وكان الكاتب يخالف بين قافية الشعر والسجع الذي قبلها ليُعلم بذلك أن الشعر ليس له^(٣). وثانيتهما تضمين رسائلهم أبياتاً أو قصائد شعرية من نظمهم. وكان الكاتب يوافق بين قافية الشعر والسجع الذي قبلها ليُعلم بذلك أن الشعر له^(٤).

ومن الأمثلة على ما ضمّنه أبياتاً من شعرهم قول ابن عبد البر في وصف غزال أهدي إليه : "تخاله سهماً إذا انصاع ، ومعشوقاً أشعرَ برفيب ، فارتاع ، يزداد جماله إذا نُفِرَ ، وتروق محاسنه إذا دُعِرَ :

كَادَ يَحْكِي غَزَالَ الْإِنْسِ لَوْلَا رِقَّةٌ فِي الشَّوَى وَقَرْنٌ عَلَيْهِ

(٢) البلاغة العربية : ص ٣٦٨.

(٣) إحكام صناعة الكلام: ص ٧١.

(٤) نفسه: ص ٧١.

(٥) نفسه : ص ٧١، القلائد: ص ٦٥، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٣١١، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٢، ج ٣، ص ٥٥٢.

أنا أهواه لا لشيء ولكن كلفاً بالفتى الذي أهداه^(١)
ومن الأمثلة على إيراد بيت من الشعر لغيرهم من المشاركة في نثر
الأندلسيين ما جاء في رسالة لأبي محمد بن عبد الغفور ، فقد استدعى فيها بيتاً
لأبي ذؤيب الهذلي ، يقول : " وإنما هو جزء دائم ، ونفوس على الورد حوائم ،
وعهدي بعزة الفقيه مطلع بشائر ، فلا يذكر المثل السائر :

وحتى يؤوب القارطان كلاهما وينشر في الموتى كليب لوائل^(٢) " .^(٣)

ومنهم من استعان في رسائلهم بشعراء أندلسيين ، ومن الأمثلة أيضاً ما جاء
في رسالة محارب بن محمد في وصف الخيل يقول فيها : " وقد تمطى فوق شمّله
، حسنة القدّ مشمعة ... عربية الشكل كما وصف ابن مرعزاً^(٤) :

محبوكة الظهر لم يخنها	لصوق بطن منها خميص ^(٥)
كالقوس في شكلها ولكن	تنفد كالسهم للقنيص
إن أخذت أنفها دليلاً	قاد إلى الكامن العويص
لو أنّها تستثير برقاً	لم يجد البرق من محيص ^(٦)

فيصف الفرس الخفيفة السريعة التي وصفها بصفات عدة تدل على أنها
عربية أصيلة فلم يترك فيها جزءاً إلا وصفه ، وسبق أن اشترت الى نص الكاتب في
الفصل السابق ، فقد استعان الكاتب بمجموعة أبيات شعرية دلل بها على تناسبها
لهذا الوصف .^(٧)

(١) الذخيرة : ق ٣ م ١ ، ص ٢١٤-٢١٥ .

(٢) البيت لأبي ذؤيب الهذلي ، خويلد بن خالد بن محرث (ت ٦٢٢ هـ / ٦٤٧) ، انظر ، ديوان أبي ذؤيب الهذلي ، ط ١ ،
شرحه وقدم له ووضع فهارسه سوهام المصري ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م ، ص ٢٠٣ .

(٣) الذخيرة : ق ٢ ، م ٢ ، ص ٣٦٠ .

(٤) ابن المرعزي النصراني الأشبيلي ، ظهر في دولة المعتمد بن عباد ، وكان من مداحه ، والأبيات السابقة له في
وصفه كلبة الصيد ، انظر ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب ، ج ١ ، ص ٢٦٩ .

(٥) البيت لم يرد في المغرب ورد في الخريدة بهذه الرواية : محبوكة الظهر لم تجبه لجوف لها خميص .

(٦) رسائل أندلسية : ص ٨٤ ، ٨٥ ،

(٧) توظيف الموروث الثقافي في النثر الفني الأندلسي في القرن الخامس هـ ، عواد نايف قويدر ، ص ٩٩ .

ومن الكُتَّاب من يقوم بتوظيف شطر من بيت شعري ويدل ذلك على قدرة الكتاب على التوظيف في الوقت المناسب ، وينبئ عن دقة عالية وثقافة واسعة في الأدب وذلك مثل ما أورده الكاتب أبو محمد بن عبد البر النمري في فصل له من رسالة عن المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر^(١) إلى أهل قرطبة ، حيص كلَّ بالحديث عنه تجاه أهل قرطبة ومكانتهم عنده ، بأنهم الأهل والجيران ، فليست هناك دار تكنفه غير دارهم ، فالكبير له القيمة والاحترام والصغير له المودة فيقول : " فأنتم الأهل والجيران ، في الدار التي منها خرجتُ، والبيضة التي فيها نشأت ، أفضل دارٍ تكفني عيائها ، وأوّل أرضٍ مسَّ جلدي ثرابها " ^(٢). فقد وظف الكاتب في سياق نصه شطراً من بيت شعر لابن زيدون حيث يقول فيه : " بلادٌ بها عقّ الشباب تمانمي وأوّل أرضٍ مسَّ جلدي ثرابها"^(٣).

وكذلك ما أورده ابن شهيد ضمن رسالة التوابع والزوابع ، حيث يقول فيها : " .. وجاء بها وسرنا إلى مكان خال طيّب ، كوصف المُهَيَّبِ خانٍ تطيبُ لباغي النُسكِ خلوته وفيه سترٌ على الفتاك أن فتكوا"^(٤).

فقد استحضر الكاتب شطراً من بيت شعر لأبي بكر محمد بن عمر بن القوطية^(٥)، يقول فيه :

من منزلٍ يعجبُ النُساكُ خلوته وفيه سترٌ على الفتاك إن فتكوا^(٦).

(٢) انظر ترجمته في مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملمح أهل الأندلس ، لابن خاقان ، حاشية رقم (٥) ، ص ١٧٣ ، انظر ، ابن سعيد ، المغرب في حلى المغرب، ج٢ ، ص ٣٠٠ .

(٣) الذخيرة ، ق١م١ ، ص٢٤٦ .

(٤) ديوان ابن زيدون ورسائله ، لابن زيدون ، ص ٧٠٢ .

(٥) الذخيرة ق١م١ ، ص ٢٧١ ، ٢٧٢ .

(١) ابو بكر محمد بن بن ابراهيم بن القوطية ، انظر أخباره في ابن خاقان ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، حاشية (١) ، ص٢٨٨ .

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ابن خلكان ، ج٤ ، ص٣٦٩ .

ومن الكُتَّاب من اعتمد على حل المنظوم من الشعر ومن ذلك قول ابن
الجد في رسالته التي عارض بها ابن سراج : " وتقطعُ إلى العراد الضباب " ،
وفيه إشارة لقول الرجز :

لا يشتهي أن يردا إلا عراداً عرداً^(١).

ومن ذلك قول ابن حسداي : " فكم تمنى الأزهار أن تضام لديكَ مطالبي،
وتكدرَ في ذراك مشاربي ، فأزلُ عني حسدَهم بكبتهم ، فقد شجاهم تقدم قبل
وقتهم"^(٢) .

فقوله : " فأزلُ عني حسدَهم .. " حلٌ لمعقود قول أبي الطيب المتنبي :

ازلُ حسدَ الحسادِ عني بكبتهم فأنتَ الذي صيرتَهُم لي حسداً^(٣)

وتفاوتت اتجاهات أدب الرسائل وموضوعاته في احتوائها لظاهرة التنويع
بين الشعر والنثر. وتظهر هذه الظاهرة الفنية في بعض موضوعات الرسائل
الوصفية كالربيعيات والروضيات والزهريات والثمريات، ووصف مطر بعد قحط،
ووصف الرحلات والطرديات^(٤).

وكما استخدم الكُتَّاب الشعر في رسائلهم كذلك استخدموا الأمثال .

الأمثال والرموز الأسطورية :

تمتلك الأمثال قيمة كبيرة ، ومدلولاً واسعاً ، لشيوعها بين الناس ، واتخاذها
صياغةً لفظية محددة ، وتركيزها على التهذيب والتعليم^(٥)، وحملها كثيراً من
المعاني ، واستثارتها كثيراً من الإحياءات ، وتجسيدها كثيراً من التجارب

(٣) الذخيرة ق ٢ م ١ ، ص ٣٤٩ .

(٤) الذخيرة ق ١٣ م ١ : ص ٤٧٢ .

(٥) ديوان المتنبي ، الواحدي : ص ٥٣٤ .

(٦) انظر أمثلة أخرى في : البديع: ص ٢٩ ، الذخيرة: ق ١ م ١ ، ص ١٥٤ ، الخريدة: ج ٢ ، ص ٢٩٨ ، ٣٠٨ .

(١) عالم التراث الشعبي ، لطفي الخولي ، الموسوعة الصغيرة (٤٠) ، منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية ، بغداد
، ١٩٧٩م ، ص ١١١ .

والخبرات الإنسانية العامة ، ولقد شغف العرب بهذا اللون من القول ، فشاع في كلامهم وكثر في تراثهم^(١).

واستخدموا المثل كوسيلة لتركيز المعنى وترسيخه في ذهن المتلقي ، وحلية لتزيين الأسلوب ، وإبراز الأفكار وتجليتها . وأكثر الكتاب من استخدامه في مواقف شتى ، وعنوا به عناية فائقة ، حتى لا تكاد رسالة تخلو منها ولقد تنوعت الأساليب التي جاء عليها المثل ، واشتملت على ما يلي :

أولاً: استخدام المثل كاملاً بلفظه ومعناه :

ومن أمثلة ما ورد على استدعاء المثل وتوظيفه ما جاء في رقعة لابن عبدالبر النمري ، يقول فيها : " وإذا حان الحين ، عميت العين ، ورب ساع بمقدمه ، على مه ، فلما جنَّ عليه الليل ، والليل أخفى للويل ، تساقوا بينهم المدام ، ليقدما بها أشدَّ إقدام "^(٢) .

يتحدث الكاتب عن جماعة خرجوا عن الأمير ، وخططوا لذلك وصرعهم تخطيطهم ، لأن مناياهم اقتربت ، فقد سعوا إليها بأقدامهم ، فلما طاح الليل ، وهو سئار للأسرار ، تساقوا بينهم الخمرة ، وعقدوا النية ، فسقطوا ، فكانت النتيجة عكس ما كانوا يتمنون ، فقد تسبب تفكيرهم وتدبيرهم بهلاكهم .

نلاحظ كيف وظف الكاتب المثل العربي " والليل أخفى للويل "^(٣) ، والذي معناه أن الليل أستر للسر ، فأفعل ما تريد أثناءه ، وهذا المثل متناسب مع حديث الجماعة المذكورة كما رأينا ، حين شربوا الخمرة وتنادموا فيه ، وهو ستر لهم ، لأنهم يعيشون في دولة إسلامية ، حريصة على عدم أتباع هذه الأفعال ، فلم يجدوا إلا أن ينفذوا تخطيطهم في الليل .

(٢) نثر أبي العلاء المعري ، دراسة فنية ، رزق صلاح ، ط١ ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٥م ، ص٢٠٠ .

(٣) الذخيرة ، ق٣ م١ ، ص ١٥٧ .

(١) مجمع الأمثال ، ج٢ ، الميداني أبو الفضل محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري (ت٥١٨هـ - ١٢٤م) ، تحقيق محمد عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ، ص ١٩٣ .

ثانياً: استخدام جزء من المثل :

ومن ذلك في رقعة لأبي مروان عبدالملك بن شمّاخ ، خاطب فيها عدداً من أجزاء الأمثال ، يقول فيها : " في كلِّ شجر نار ، وأستمجد المرخُ والعفرار^(١) ، وأن تسمع بالمُعيدي^(٢) ، وتخبرَ عن الإياسيِّ ، فشاكه أبا يسار ، فبدون ما وصفتنيه ينفقُ الحمار^(٣) " (٤) .

يصف الكاتب بلده ، ويقول إنَّ فيها بقعة جميلة تنضخ بالماء الصافي ، وفيها الشجر العالي الكثيف كشجر المرخ والعفرار ، وهما شجرتان سريعتا الاشتعال^(٥) ، ولذلك يضرب فيهما المثل . ولقد استخدم الكاتب أجزاء كل من هذين المثليين ضمن سياق نصه ، واستحضر الكاتب أيضاً في النص نفسه جزءاً من المثل القائل : أن تسمع بالمعدي خيراً من أن تراه " .

ومن الكتاب من يشير إلى الأساطير في رسائلهم التي كانت شائعة عند العرب القدامى ، ومن ذلك إشارتهم إلى بعض الكواكب والنجوم التي كانت تقدسها بعض الشعوب أو تتخذها رمزاً للمشي والجمال إضافة إلى ما يتعلق بالطير وغيرها^(٦) .

ومن ذلك ما جاء في رسالة لابن عبد البر في وصف الشطرنج وفي درج حديثه تعرّض لذكر القمر والكواكب والجوزاء ، حيث يقول : " وكأما الشاه

(٢) المعجم الوسيط ج٢ ، ١ ، قام بإخراجه مصطفى إبراهيم ومجموعة مؤلفين ، مؤسسة دار الدعوة للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع ، استنبول، تركيا ، ص ٨٦١ ، ٦١٠ .

(٣) الميداني مجمع الأمثال ، ص١٢٩ ، الضبي ، المفضل بن محمد بن يعلي بن عامر (ت١٧١هـ-٧٨٧م) ، أمثال العرب تقديم وتعليق إحسان عباس ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٤٠١هـ-١٩٨٠م ، ص٥٥ ، العسكري ، جمهرة الأمثال ، ج١ ، ص٢١٥ .

(٤) الميداني ، مجمع الأمثال ، ص٢٤٢ .

(٥) الذخيرة ، ق ١ م ٢ ، ص ٨٣٦ .

(٦) ديوان ابن زيدون ورسائله : ص٧٠٣ ، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، ج١ ، منشورات مؤسسة المعارف ، بيروت ص١٩٢ .

(١) استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، زايد علي عشري ، ص ٢٢٤ .

كسرى حَقَّتْ به مرزیه ، أو بدرٌ أحاطت بفلكه كواكبهُ ، هي به قطبُ كواكب
الجوزاء وعليها تدورُ الدوائر ، وقلب الكتيبة وعليها تقتتلُ العساكر"^(١).

لقد استخدم الكاتب مجموعة الكواكب السابقة ، التي كانت رموزاً قديمة عند
العرب ، والكاتب هنا رمز بهذه الكواكب إلى حجارة علبة الشطرنج ، التي تضم
الملك وما حوله من جنود ، حيث صور الكاتب الملك في لوحة الشطرنج ، كأنه
الشاة كسرى وهو القمر ، والجنود من حوله كأنهم كواكب تدور في فلك القمر ،
والملك بدوره هو قطب كواكب الجوزاء والعساكر حوله ، هي باقي مجموعة
كواكب الجوزاء ، لقد أعطي الكاتب هنا لوحة الشطرنج لعلو المنزلة والهيبة ، وما
تحمل عليها من أحجار تمثل الملك وحاشيته رموزاً أسطورية قديمة، تمثلت
بالكواكب والنجوم .

وذكر الطيور كرمز أسطورية ، ما ورد في رقعة لابن زيدون يذكر فيها
معاهد أموية كان يخرج إليها في العيد ، يقول فيها : " وغدت تلك المعاهد ،
تصافحها أكفُ الغبر ، وثرأوحها نَعَباتُ الطير ، وراحت بعد الزينة سُدىً ، وأمست
مسرحاً للبوم وملعباً للصدى ، يُسمعُ للجنِّ فيها عزيف .. وكذا الدنيا أعمالها خرابٌ
، وآمالها آلٌ وسرابٌ وأهلكت أصحاب الأخدود ، وأذهبت ما كان بمأرب من
حَيَاةٍ وحُدود "^(٢).

لقد أشار الكاتب إلى طائرين ينبئان عن الخراب والدمار والتشاؤم^(٣)، وهما
الغراب والبوم^(٤)، فكلاهما يعدُّ عند العرب من الرموز الدالة على الشؤم والطيبة،
كما فعل الغراب بنوح عليه السلام عندما ذهب ولم يرجع إليه^(٥)، فضرب به المثل

(٢) الذخيرة، ق٣م١، ص٢١٥.

(٣) قلاند العقبان ومحاسن الاعيان ، لابن خاقان ، ص٢٢٣.

(١) جمهرة الأمثال للعسكري ، ج١، ص٤٥٧.

(٢) المعتقدات الشعبية في التراث العربي، دراسة في الجذور الأسطورية والدينية والمسلكية الإجتماعية ، حسن الباش
، دار الجليل دمشق ، ١٩٨٥م ، ص٣٠٤، ٣١٤.

(٣) بعث سيدنا نوح الغراب ليأتيه بخبر غرق البلاد فوجد الغراب جيفة فوقه عليها ، فدعا عليه بالخوف ، فلذلك لا يألّف
البيوت ، انظر ابن كثير قصص الأنبياء ، ص٥٤.

" غراب نوح " (١) وكانت كذلك البوم كالغراب توحى بالدلالة نفسها . لقد وظف الكاتب هذه الرموز الأسطورية في التطير ، على سبيل ملاءمتها الحال التي وجد عليها معاهد الأمويين ، وقد أصابها الخراب والدمار ، فقد ربط ذلك باسمي الغراب والبوم ، الموحيين بالدمار والموت ، وبالتالي ربطها بعلم الغيب ، حيث أنّ الدنيا كل أعمالها خراب ، والأمل فيها كالسراب وقد أهلكت جميع الأمم السابقة ولم تبق منهم شيئاً.

الإيجاز والإطناب:

لم تكن نصوص أدب الرسائل على مستوى واحد من حيث الإيجاز والإطناب، فهي تقصر وتطول حسب موضوع الرسالة والظرف الذي كتبت فيه وعاطفة المرسل، ولعل ميل الكتاب الأندلسيين إلى السهولة والوضوح والابتعاد عن التعقيد، وحرصهم على التنويع بين الشعر والنثر، وحل المنظوم، قد دفعهم إلى الإسهاب والإطناب، لأن عناصر هذا الترصيع تتطلب التمهيد لها بما يناسبها من المعاني المنثورة، كما تتطلب التعليق المناسب عليها^(٢). فقد تفاوتت كُتاب الرسائل الوصفية في التراكيب اللغوية بين الطول والقصر ونوع الكتاب بين الجمل الطويلة والجمل القصيرة .

ومن ذلك ماجاء في رسالة أبي عامر بن أرقم : " يا سيدي الأعلى ، وعلقي الأعلى ، وسراجي الأجلى ، ومن أبقاه الله والأمكنة بمساعيه فسيحة ، والألسنة بمعالية فسيحة " (٣). فأنتت الجمل قصيرة متتابعة خمس جمل قصار .

وتظهر سمة الإيجاز في عدد من الرسائل الوصفية كالزهريات وذلك بقول رسالة : " من حدائق بواسق ، في أيسر من رجعة الطرف ، وأسرع من قبضة

(٤) زهرة الاكم في الأمثال والحكم ، نور الدين أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي ، ط١، تحقيق محمد صبحي ومحمد الأخضر ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨١م، ص١٩٢.

(٥) النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس الهجري ، د علي بن محمد: ص٣٧٧ – ٣٧٨.

(١) نفسه : ص٣٧٧ – ٣٧٨.

(٢) نفسه ، ص ٣٧٧ – ٣٨٨ .

الكف ، إلى أنوار أبنعت ، وأزهار تنوعت ، فمن وردٍ كتوريد الخدود ، ونرجس كمثل الغيد" (١) .

وقد تأتي الجمل متوسطة الطول كما في زرورية ابن المرخي التي انتظمت أربع عشرة جملة في سلكها .

وتأتي تارة مفرطة الطول كمقدمة ابن أبي الخصال في رسالته في تضاعيف زرورية خرج فيها على الشفاعة فيقول : " الحمد لله ذي الحكمة البالغة ، والنعمة السابغة ، الذي اعتمدنا بالإحسان ابتداء ، وانشأنا من نفس واحدة إنشاء" (٢) .

وتظهر سمة الإطناب في بعض رسائل المفاضلات والمفاخرات بين الأزهار والورود كرسالة ابن برد الأصغر في وصف خمسة من الأزهار وتفضيل الورد عليها: " وكان ممّن حضر هذا المجلس وشهد هذا المشهد من مشاهير الأزهار ورؤساء الأنوار النرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيريّ النمام .." (٣)

وكذلك تظهر لنا الأطناب (٤) برسالة ابن برد لوصف النخلة : " جعلك الله من المؤثرين على أنفسهم والموقين شحها ، والمنجزين لمواعيدهم والمعطين صدقها - فقد علمت ما سلف لنا في العام الفارط من عتابك ، ولبسنا شكته من ملامك ، لمّا كتمتنا صرام النخلة التي هي بأرضنا إحدى الغرائب ، وفريدة العجائب ، هرباً من أن نلزمك الإسهام في رطبها ، وحرصاً على تمام لذّة الاستبداد بها ، وقلت وقد سألناك من جناها قليلاً ، ورجونا أن تنيلنا منها ولو فتيلاً : لو علمت أنّ لكم به هذا

(٣) نفسه ق ٢٣ ، ص ٧٦١ ، انظر أيضاً أمثلة على الإيجاز القلائد ، ص ١٠٦-١٠٨ ، الذخيرة ق ١ م ١ ، ص ٥٠٢ ،

الذخيرة ، ق ١ م ١ ، ص ٢١٤-٣٦٤ .

(٤) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٦٥ .

(١) انظر امثلة أخرى على الأطناب الذخيرة ق ٢ م ٢ ، ٧٥٨-٧٦٠ ، الذخيرة ق ٢ م ١ ، ص ٣٤٧-٣٤٩ ، ق ٢ م ٢ ، ٤٥٨-٢ ،

٤٦٠ .

الكلف ، وإليه هذا النزاع ، لأمسكته عليكم"^(١) والرسالة طويلة تمتد إلى أربع صفحات .

ومهما يكن من أمر فإن الكتاب الأندلسيين كانوا يراعون ظروف إنشاء الرسائل، ومناسبة الإطناب والإيجاز فيها لمقتضى الحال.

(٢) الذخيرة ق ١ م ١ : ٥٢٨ .

الصورة البيانية

وضع عبد القاهر مفهوماً للصورة بقولة : " هو التعبير المحسوس في مقابل المعرفة الذهنية ، وذلك أن (قولنا) الصورة ، إنما هو تمثيل وقياس لما نعلمه بعقولنا على الذي نراه بأبصارنا " (١).

اتكأ مفهوم الصورة في عرف البلاغيين على الوسائل الفنية التي تقدم المعاني بطرق تصويرية ، لأنها أقدر على إكساب التعبير عمقا وتأثيراً بالتحليق في فضاءات الخيال الذي يُنمّي " الصورة " . وهذه الفنيات هي : التشبيه – الاستعارة – الكناية – المجاز . (٢)

وبما أن الصورة الفنية هي رسم للتجربة الشعورية التي يعيشها الكاتب فقد كانت الرسائل الوصفية راصدة لتلك التجارب أو المواقف المختلفة .
"فالتجربة الشعورية تتبدى من خلال الصورة التي يقدمها الفنان ، ذلك أنه لا يفصح دائماً عن مرامييه وأعماقه ، التي تحس وتنفعل .. ، ويلجأ إلى الصورة لتعبر عن إحساسه من داخله" (٣) .

ويعد الخيال من أبرز الوسائل التي استخدمها الكتاب في تكوين صورة بيانية معبرة (٤) ولم يقتصر الخيال على موضوع معين من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه، وإنما شمل عدداً كبيراً منها فلقد كان الخيال من أبرز الخصائص الفنية لرسائل المفاضلات والمفاخرات. وهو خيال واسع متأثر بالحكايات والأساطير من حيث إدارة الحديث على أسنة غير الإنسان.

ولقد تمثل هذا الخيال في رسالة المفاضلة بين الأزهار وتفضيل الورد عليها لابن برد الأصغر (٥) وفي رسالة أبي الوليد الحميري في تفضيل البهار (٦)، وفي رسالة أبي عمر الباجي التي كتبها على لسان بهار يشكو فيها الورد للمقتدر ابن

(١) دلائل الإعجاز : ٣٨٩ .

(٢) الرسائل الإخوانية عند كتاب الأندلس : ٣٢١ .

(٣) جماليات الأسلوب (الصورة الفنية في الأدب العربي) ، صبحي البستاني ، دار الفكر اللبناني – بيروت ط الأولى (١٩٨٦م) ، ص ٣٢

(٤) الأسلوب: ص ١٩٥-١٩٧، في النقد الأدبي: ص ١٧٥ .

(٥) البديع: ص ٥٢-٥٥ .

(٦) نفسه : ص ٥٥-٦٧ .

هود، عندما تعدى عليه واغتصب رئاسته^(١). وفي رسالة ابن حسداي التي أجرى الحوار فيها بين النرجس ورجل ظريف من خواص الأمير^(٢).

لقد تصور الكتاب في كثير من هذه الرسائل وقوف الأزهار والورود في مجالس تنادت إليها ، وأجروا حواراً على أسنتها . فقد وقف كل نور حضر هذه المجالس يدافع عن نفسه ، ويفتخر بصفاته ، ويؤدّي شهادته ، ويدلي بوجهة نظره^(٣).

كذلك يظهر عنصر الخيال واضحاً في رسالة التوابع والزوابع التي كتبها ابن شهيد في إطار قصصي خيالي مبتكر^(٤)، أراد من ورائه أن يظهر موهبته وعبقريته ، وأن يتغنى بفضائله ، ويشيد ببلاغته ، وينال من خصومه ، وينافح عن أدبه أمام خصومه وحساده الذين انتقصوا أدبه وبلاغته^(٥) . ولعلّ هذه الأمور مجتمعة هي التي حملته على الطيران حول ديار الجن على ظهر جواد سار به كالطائر^(٦).

وليس أدلّ على قوة الخيال في رسالة التوابع والزوابع من اختيار الميدان الذي دارت عليه أحداث هذه القصة ، وطريقة استدعاء التابع ، وفي وصف الجواد ، حيث نحسّ الجو الأسطوري والخيالي : " يجتابُ الجوَّ فالجوَّ ويقطع الدوَّ فالدوَّ ، حتّى التمحتُ أرضاً لا كأرضنا ، وشارفتُ جوّاً لا كجوّنا "^(٧) .

كذلك يبدو في استدعاء تابع أبي تمام : " فانفلق ماء العين عن وجه فتى كفلقة القمر ، ثم اشتقّ الهواء صاعداً إلينا من قعرها حتّى استوى معنا "^(٨) .

(١) الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ١٩٤-١٩٥.

(٢) نفسه: ق ٣ م ١، ص ٤٧١، ٤٧٢.

(٣) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس هجري : ص ٣٦١.

(٤) الأدب الأندلسي : ص ٣٧٧، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه : ص ٦٤١.

(٥) لتوابع والزوابع ، للبستاني : ص ٧٠.

(٦) نفسه : ص ٩١.

(٧) نفسه : ص ٩١.

(٨) نفسه : ص ٩٨ .

كذلك كان الخيال من العناصر الأساسية التي استعان بها الكتاب في التعبير عن المعاني في الرسائل الوصفية، وخاصة في رسائل وصف الطبيعة. وقد أضفوا على مظاهر الطبيعة المختلفة من خيالهم ما يجسمها ويشخصها، فبعثوا فيها الحياة والحركة، وخلقوا عليها المشاعر الإنسانية^(١).

وكان الخيال عند الكتاب الأندلسيين مبنياً على التصوير البياني الذي يعتمد على إيراد الصور والتشبيهات والاستعارات المختلفة اعتماداً كبيراً. وقد تنوعت مصادر هذه الصور البيانية وتعددت. وكانت البيئة الأندلسية من أهم هذه المظاهر وأبرزها، حيث أمدت الكُتَّاب بالأخيلة والتشبيهات والاستعارات الغزيرة^(٢).

التشبيه:

يبدو لكل متأمل في النصوص النثرية بصورة عامة أن فن التشبيه يكون قاعدة عامة من قواعد التعبير الأدبي فيها ويقف على رأس العناصر البيانية المعتمدة أساساً وقواعد في مجل التعبير الأندلسي في هذه الفترة. والتشبيه في أبسط تعاريفه: عقد مماثلة بين شيئين يراد إشراقهما في صفة أو مجموعة صفات. ويتم بأداة تسمى أداة الشبه وهو على أنواع باعتبارات عديدة أو هو الدلالة على مشاركة أمر لآخر في صفة معينة بأداة بغرض يقصده المتكلم^(٣).

ولوحظ أن الكُتَّاب لم يلتزموا كثيراً بالتركيب البنائي للصورة التشبيهية وأجزائها الأساسية وهي (المشبه والمشبه به وأداة التشبيه ووجه الشبه). ولم يعتمدوا على هذا التحديد التركيبي للصورة، فهي قد تأت مكتملة الأركان وقد تأت معتمدة على الطرفين الأساسيين (المشبه والمشبه به) وترد حيناً محذوفة الأداة، أو يحذف منها وجه الشبه وهو (الصفة المشتركة بين المشبه

(٢) البديع: ص ٨، القلائد: ص ١٠٣، الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٤٠٥-٥٠٢، الخريدة: ج ٢، ص ٢٩٨.

(٣) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ص ٣٦٢.

(٤) العسكري، الصناعتين، ص ١٨-١٩٦، والجرجاني، عبدالقاهر: أسرار البلاغة، ص ٧٦-٢٠٠ وما بعدها، ابن الأثير المثل السائر، ج ٢، ص ١١٦-١٦١، القزويني، الإيضاح ج ٢، ص ٢١٣-٢٦٥.

والمشبه به) كي يترك العنان لخيال المتلقي ، وحرية في تفصيل الصور وربطها بما يختلج في داخله من مشاعر ، ويتوافق مع ذاته ووجدانه^(١).

أما من حيث أسلوب أدائها فهي تتفاوت ما بين البساطة من خلال رسم الصور الواضحة التي لا تحتاج إلى تعمق في فهمها للخروج بالمراد منها ، أو التركيب الذي تدور فيه الصور حول عدد من الأشكال التشبيهية المركبة .

ويبرز دور الكاتب من خلال تعامله في صورته التشبيهية مع " الواقع المحسوس بأبعاده ، ومع الجوانب التجريدية الفكرية ، ومع أعماق الإحساس النفسي الداخلي " ، ومن ثم إسقاطها على مواقف الانفعالية ، ووصلها بالبيئة التي يعيش فيها^(٢) .

وإذا جننا إلى الموضوعات من حيث احتوائها التشبيه والموازنة بينها على أساسه وجدت أن أغراضاً معينة تحتل مكان الصدارة في هذا الجانب ومنها رسائل الزرزيورات.

ونلاحظ اعتماد الكتاب في صور التشبيه في عدد من تعابيرهم وبأدوات مختلفة وقد وردت هذه الصور بكثرة تفوق الحصر وتكاد تلازم أكثر العبارات والجمال ومن أمثلتها قول الأديب أبي القاسم بن الجدي في نص من نصوص فصوله التي عارض بها رسالة زرزيورية عرضت عليه: " .. والله تعالى يكفيه فيما ينوبه شر الجوارح وبقية شؤم الجابة والبارح بمنه وبعد هذا الهزل العجيب جد كالظلام المنجاب وبروز صفحة الشمس من الحجاب أخطب به من رسائل بكرة أجعل نقدها شكراً... " ^(٣)

وفي هذا الجزء من رسالة ابن الجدي زرزيورية الهزلية القائمة على السخرية والفكاهة نلاحظ اعتماده على التشبيه بالكاف واستعانه بالمعنوي على الحسي حيث جعل المشبه به شيئاً معنوياً مع أن المشبه محسوس وهو الرجل

(١) تفاوت التركيب البنائي للصورة التشبيهية يخرج عدداً من أنواع التشبيه ، لمزيد من التفصيلات في ذلك انظر : علم

البيان ، د. عبدالعزيز عتيق ، علوم البلاغة د. أحمد المراغي ، ص ٢٧٠ .

(٢) جماليات الأسلوب : ص ٧٢ - ٧٤ .

(٣) ابن بسام، الذخيرة، ق٢، ص٢٢١.

المعني بالرسالة. ثم كرر المشبه به ليزيد المعنى جلاءً ووضوحاً والصورة تأثيراً وجمالاً بأن جعل المشبه به في المرة الثانية محسوساً ولكنه جميل مؤثر وهل أجمل من الشمس عند شروقها وتبديد الظلمات من الوهاد والجبال والوديان والبطاح. كذلك فقد قدّم أبو الفضل جعفر بن شرف القيرواني صورة مشرقة لأحد الوزراء استوحاها من البيئة الأندلسية الجميلة ، حيث شبه الوزير بالمطر في غزارة عطائه وعمومه ، وبالقمر في أشعته وتبديده للظلمات ، يقول : " الوزير كالمطر الجود يملأ الحياض ، ويُنبِتُ الرِّياضَ ، بل كالقمر يقذفُ بالنُّورَ ، ويذهبُ بالديجور " (١).

فهذا المقطع يتكون من صورتين متتابعتين اكتمل فيها التركيب البنائي وذكر المشبه وهو (الوزير) ، وذكر الرابط وهو أداة التشبيه (الكاف)، والمشبه به في الصورة الأولى (المطر) والأخرى (القمر) وذكرت الصفة المشتركة في الأولى (يملاً الحياض ، ينبت الرياض) و (يقذف بالنور ، ويذهب بالديجور) في الأخرى .

فقد توافرت أركان التشبيه الأربعة ، ولم يخرج الكاتب في رسمه لهذه الصورة عن إطار -التقليدية- في اتكاء عناصرها على الجانب المادي المحسوس المستوحى مما يحيط بالكاتب من بيئة خلابة ، فشبه عطائه بالمطر الذي يعمّ نفعه من إحياء للنبات فتغدو الرياض وقد أينعت ثمارها ، وأخضرت أشجارها ، وفاحت أزهارها ، وأترعت حياضها ، وجرت جداولها ..

وفي الصورة الثانية شبهه بالقمر في عموم فائدته التي تبدد الظلام ، وتنتشر الضياء ، فصور عطاء الوزير وكرمه الذي بدد ظلام حياته ، وأبدلها نوراً مشعاً كإشعاع القمر المنير التي تمتد صفحات ضيائه على الكون فتبدد الظلمات .

ولا يخفى ما في هذا التعبير من جماليات فنية ، فالصورة الأولى مكتملة الأركان ، مستوفية العناصر ، كشفت عن كرم هذا الأنسان وسخائه ، ولكن ربما أراد الكاتب أن ينبئ عن موقف انفعالي عاشه في لحظات يأس رأى معه الوجود

(٢) نفسه : ق ٣ م ٢ ، ص ٨٨٢.

مظلماً عاتماً ، فامتدت إليه أيادي النجاة وأضاءت حياته بإشراقه الأمل ورجاء الخير ، فعبر بالصورة المضيئة للقمر كتأكيد لجوانب الخير والاستمرار في هذه الحياة ، تجسيدا للفضائل الأخلاقية في ذات المخاطب ، التي احتوت الكاتب معنوياً ومادياً.^(١)

وأكثر ما يبدو لنا التشبيه في نصوص الرسائل الوصفية معاني وصف القلم ، والمداد وأدوات الكتابة حيث لا نكاد نحصي الصور المعتمدة في التشبيه إذ أنها وردت بدرجة من الكثرة تكاد تغطي أكثر الجمل والعبارات الوصفية ، في حين يأتي التشبيه في المناظرات وغيرها مما أشرنا إليه أقل من هذه الدرجة.

ومن أمثلة النصوص الأولى في كثرة التشبيه وتتابع صورته وألوانه قول الأديب ابن برد الأصغر في فصول موجزة في وصف القلم : "قال الله تعالى: كراماً كاتبين يعلمون ما تفعلون، المداد كالبحر والقلم كالغواص واللفظ كالجواهر والقرطاس كالسلك. الدواة كالقلب والقلم كالخاطر والصحيفة كاللسان والعقل اب والعلم أم والفكر ابن والقلم خادم..."^(٢) وهذا النص الوصفي المعبر ينطق بما فيه ويفصح عن الصور المتتابعة الكثيرة في التشبيه.

وابن خفاجة لا يُخفي ما للطبيعة الخلابة من تأثير على مشاعره ، ومدى أنسه بمشاهدة مناظرها الجميلة ، ورغبته في نقل الأحاسيس والمشاعر لصديقه من خلال رسم صورة بديعة للعالم تصور سعادتها وبهجتها بعد انقشاع الغيوم وتوقف المطر عنها ، وقد ازدهت جمالاً بما تحلت به من خضرة يانعة ، وأزهار فواحة ، وبلابل غردة ، ونسيم عليل .. ، فهي كالعروس التي ظهرت لضيوفها وهي في قمة سرورها ، وفي كامل زينتها وحُلِيِّها فيقول : " تطلعت الدنيا تبتهج كأنها عروس تجلت وقد تحلت "^(٣) .

(١) الرسائل الإخوانية عند كتاب الأندلس في القرن السادس الهجري محاورها المضمونية سماتها الشكلية ، ابتسام

الصبحي : ص ٣٣١-٣٣٢ .

(٢) ابن بسام، الذخيرة، ق ١، م ٢، ص ٢٨ .

(٣) الذخيرة : ق ٣ م ٢ ، ص ٥٤٣ .

وجمالية أدائها من خلال تجربة الكاتب الشعرية التي تعبر عن انفعاله بالمنظر الخلاب الذي رآه ، وحرك في داخله رغبة قوية للاجتماع بأصدقائه في هذا المكان ، فنقل إحساسه عبر الصورة لإثارة مكامن الانفعال في نفسية المتلقي لينفعل هو الآخر بما يقرأ وبما توحى به مثل هذه الصور المرسومة بالحروف والكلمات فيجعل من حضوره الفوري عنوان الاستجابة^(١) ، كما يُلاحظ على هذه الصورة أن الكاتب صاغها في قالب من البساطة والوضوح كي تُحقق مُرادَه ، ولا يصعب على المتلقي إدراك الإحياءات المحيطة بهذا التشبيه^(٢) .

ومن الأشكال المركبة في الصور التشبيهية ما اصطلح النقاد والبلاغيون على تسميته " التشبيه التمثيلي "^(٣) .

ومن ذلك ما جاء في رسالة الكاتب أبي بكر بن عبد العزيز : " وكان كالغيث الذي أفلح ، وترك الغدير والمرتع ، بعدها روض المصيف والمربع "^(٤) .

يكمن جمال الأسلوب التصويري في هذه الصورة التي تشع بالحياة في إتقان الكاتب لرسمها من خلال الائتلاف الحيوي بين صورة الحياة التي يهبها الغيث للأرض ، والفوائد الجمّة التي يُسبغها عليها ، ويتحقق الخير من وراءها . فيترك المكان وقد أترعت غدرانه ، وأخضرت مرابعه ، وفاضت خيراته ، لتزدهي الحياة وتعم الفائدة .

وبين الصورة التي تتبدى مما قدمه هذا (المتوفى) لرعيته من خير يعم ، وأمن مستتب ، وعدل لا جور فيه ، وغير ذلك مما يمكن أن يقدمه الحاكم المحب لرعيته^(٥) ، ولنا أن نعدد ونسهب في ذلك^(٦) .

(٢) الرسائل الإخوانية عند كتاب الأندلس : ٣٣٢- ٣٣٣ .

(٣) انظر أمثلة أخرى : الذخيرة ، ق٢ م ٢ ، ٥٤٤ . الخريدة : ق٤ م ٢ ، ٤٥٧ ، ٥٣٩ ، ٥٥٤ ، ٦٢٤ ، رسائل أندلسية : ٢٨٢ ، ٢٨٨ ، ورسائل ومقامات أندلسية : ٧٢ .

(٤) انظر : جماليات الأسلوب ، فايز الداية : ٩٤ ، وانظر عن التشبيه التمثيلي : علم البيان ص ٨٦ - ٨٨ ، والبلاغة العربية (البيان والبدیع) ٤٤-٥٢ .

(٥) رسائل ومقامات أندلسية : ص ٨٠ .

(١) الرسائل الإخوانية عند كتاب الأندلس : ص ٣٣٤-٣٣٥ .

(٢) انظر أمثلة أخرى للتشبيه التمثيلي في رسائل ومقامات أندلسية ٦٩ ، ١٢٤ . رسائل أندلسية : ٢٤٦ ، ٣٢٢ .

الاستعارة:

ليست مهمة الاستعارة في النص الأدبي نقل دلالات الألفاظ أو تقرير معنى وتوكيده بل مهمتها أن تتأزر مع غيرها داخل النص الأدبي شعراً ونثراً لتعبر عن المشاعر الإنسانية ، والتعبير الذي يستحق كلمة استعارة هو ذلك التعبير الذي حمل شحنة من المشاعر التي تحدث تغييراً في نظام دلالة الكلمات على معانيها الأصلية^(١)، ومن ذلك قول عبد القاهر الجرجاني : " اعلم أن الاستعارة في الجملة أن يكون لفظ الأصل في الوضع اللغوي معروفاً تدل الشواهد على أنه اختص به حين وضع ، ثم يستعمله الشاعر أو غير الشاعر في غير ذلك الأصل ، وينقله إليه نقلاً غير لازم ، فيكون هناك كالعارية"^(٢).

وسنكتفي في هذا المبحث بإيراد نماذج للدلالة على وجود الاستعارة في تعابير الكتاب ، ومثالاً على براعتهم في رسم الصورة البيانية .

ونجد ركن الاستعارة واضحاً في كثير من القطع النثرية إلى درجة لا تقل عن وضوح التشبيه، بل ربما زادت عليه وأربت على صورته وأشكاله من حيث وجودها في التعابير النثرية.

والنصوص المعتمدة على صور الاستعارة من الرسائل الوصفية تلك التي تناولت وصف الطبيعة وما فيها من مشاهد ومناظر وفي مقدمتها الربيع بمباهجه ومفاته وأزهاره وأطياره وأنهاره وعطره وما إلى هذا.

والأمثلة على هذا كثيرة تفوق الحصر ومن ذلك قول أبي إسحاق ابن خفاجة: " واتفق لي أن فصلت تلك العشية والأفق قد أضحى وابل من مرضه وصحا وصفحة الشمس محطوطة القناع مصقولة المرأة الصانع، فما هممت بأن

(١) مفهوم الخيال : ص ٣٣٤ .

(٢) أسرار البلاغة : ص ٢٢ .

أجزع وادي الحضرة حتى تفق جفن الجو يندى ومطرف الغمامة ينار ويسدى " (١)

وقول ابن خفاجة من رسالته : " ورد كتاب سيدي الكريم .. فوفقت منه على الرياض العيقة ، والحياض الغدقة " ٢ . فهذه الصورة المعبرة عن السرور العظيم بتلقي الكاتب لرسالة من صديقه ، جعلته يتصور أن ما فيها ليست حروفاً مسطورة وإنما هي أعمق من ذلك ، فتخيل أنه يقف ناظراً إلى الطبيعة الجميلة بما تحويه من أشجار يانعة ، وأزهار فواحة ، وبلابل مغردة ، وجداول مياهها عذبة صافية .. ، فهي رياض غناء يعبق أريجها على صفحات الرسالة ، ويترقق ماؤها في انسيابية وصفاء تشف عن إحياءات أخرى من وراء التصوير ، فهذه الطبيعة الجميلة هي انعكاس حقيقي لأخلاق صديقه وما يتحلى به من صفات كريمة ، وفضائل توحى بصفاء نفسه ، ورقة طبعه (٣) .

وقد استعار ابن المرخيّ سمات بطل المقامة أيضاً وطرحها على زرزوره وإن بدا أقل استخداماً للرمز ، ويتجلى هذا الملح في زرزورته الثانية التي كتبها إلى ابن حسون ، فقال : " وإنه مع هذه الدعوة لمجيب الدعوة ، فينشد الموشح والقصيد ، ويهيم بحبّ الصيد، ويبسط ذراعيه بالوصيد ، ويكثر الرسائل ويتلو المقامات والرسائل " (٤) .

ومن ذلك قول ابن أبي الخصال في رسالته : " برزت عنه الدُّنا موشيةً ، والأرض سندسية ، فبيننا هي كذلك قد لبست زخارفها ، وفاح عرارها ونمت أزهارها ، وهب نسيمها عليلاً " (٥) .
ويلاحظ على هذا النص أن مصدر الاستعارة استوحاه الكاتب من الطبيعة.

(٣) العماد الاصفهاني، خريدة القصر، ق٤، ج٢، ص٦٣١.

(٤) رسائل أندلسية : ص ٣١٦ ، انظر أيضاً : ٢٨٢ ، ٢٩٨ ، انظر الخريدة ق٤ م ٢ : ٥٣٩

(١) الرسائل الإخوانية عند كتاب الأندلس : ص ٣٤٣ .

(٢) الزرزوريات ، فوزي عيسى : ص ١٩

(٣) رسائل ومقامات أندلسية : ص ١٢٥ .

ومن ذلك قول ابن أبي الخصال : " ... أيها البدران المتسقان ، والغصنان
المعتنقان ، والكفان المنتظمان ، على سُنَّة الإيمان وطاعة الرحمن ، وبأسعد جدِّ
وأيمن طير ... " (١) . ، والعروسان لجمالهما وتناسقهما معاً كالبدريين ، وهما
كالغصنين المتعانقين لترابطهما وتحابهما ، وكالكفين في تناسبهما وتكافؤهما في
جلِّ الصفات ، وقد أضيف عليهما من خلال الاستعارة التصريحية ليكون المعنى
أبلغ وأعمق .

وتكتمل الرؤية للاستعارة بحسب فايز الداية بتناول المؤثرات المتبادلة بين
المجردات والمحسوسات ، وفيما بين الأفعال البشرية ذاتها (٢) . فالاستعارة تدل
على قدرة بارعة في التصوير والتعبير ، وإسباغ الحياة على الجمادات بصور
تجسد شعور الكاتب وإحساسه . فالتدفق الإبداعي والإلهام الفني يتفاعل في ذات
الأديب مع تجربته الشعورية وإحساسه الوجداني ، وأفكاره ومعتقداته ، ونظراته
للحياة والكون من حوله (٣) .

ويمثل هذا الجانب قول ابن خفاجة في تصوير مجالس الأنس واللهو فقد
أضفت الصورة الاستعارية عليها تشخيصاً بيانياً ، وثناء حيويًا حتى ضارع ما في
هذا المجلس أو ذاك الحياة بكل مظاهرها وتفصيلاتها فيقول : " قلما يطيب رضاع
الكأس إلا مع الصديق الشقيق ، المشبه بالأخ الشقيق .. ، وهذا يوم ضُربت فيه
أروقة الأنواء ، وأعرست الأرض فيه بالسماء ، فالغصن يتلوى ويتثنى ، والحمامة
تُرجع وتتغنى ، والماء يرقص من طرب ويصفق ، والزهر يشق جيب كمامه
ويُمزق " (٤) .

فالكاتب يصور مظاهر الاحتفال في هذا اليوم الماطر فأروقة الحفل قد
أنشئت ، وأقيمت ولائم الأعراس حين أعرست الأرض بالسماء التي تبدى قبولها
من خلال المطر المنهمر .

(٤) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٣٣ .

(١) جماليات الأسلوب : ١٢٥ .

(٢) جماليات الأسلوب : ص ١٢٨ .

(٣) الذخيرة ، ق ٣ م ٢ ، ص ٥٤٦ .

ويدخل في تفاصيل المحفل الغنائي الذي أقيم بهذا المناسبة ، وتبدع ملكته الخيالية فيتخيل أن الأغصان ، والحمام ، والأزهار ، وجداول المياة تشارك في هذا الحفل الطربي ، فالغصن في تحركه واهتزازه كراقص تتمايل أعطافه وتتثنى أنساً وسروراً.

والحمامة تُغني وتردد أعذب الألحان التي يؤديها مغن عذب الصوت ، شجي الأنغام ، ومنظر الماء في جريانه واضطراب صفحته واهتزازها بتساقط المطر عليها ، أثار في نفسه صورة خيالية رسمها لجمهور فرح يشارك رقصاً وتصفيقاً .

والأزهار في قمة سعادتها وانتشائها فكأنها لفرط ذلك قد شقت غطاء طلعتها ومزقتة بظهور ثوارها وفوح أريجها .

فقد أسقط الكاتب صور الطبيعة الخلابة في جوها الماطر الجميل على مظاهر الأنس وأدواته المتوافرة في هذا المجلس ، وشخصها في مشاهد مزدانة بالحياة في جانبها اللاهي ، وتمتد تأثيراتها وإيحاءاتها لتعطي الصورة ثراء وغنى .
ومن ذلك قول ابن عبد الغفور في رسالته : " ثم نبدأ من شأن هذا الحيوان بزرزور ، لا يعرف حقاً من زور ، مشهور في الطير بالضرع ، كثير العادية قليل الورع كأنما رهطه عبيد للبلابل ، ولغظه وقع الحصى المتقابل " (١) .
فأسقط الكاتب مشاعره وانفعالاته الغاضبة من هذا التجاهل على أوصاف هذا الطائر ، فيلصق صورتها بصورة الزرزور على سبيل الاستعارة .

المجاز :

وفي المجاز المرسل خيال رائع لمتأمله ومبالغة مؤثرة ، وهو " فن من فنون الإيجاز " (١) ، استعماله دلالة على اتساع الأسلوب اللغوي عند الكاتب ، وعلى مقدرته في استخراج مكونات المعاني الحقيقية ومتعدياتها .

(١) الذخيرة ، ق ٢ م ١ : ص ٣٥١ .

ويتمتع الكُتَّاب بمحصول لغوي غني مكنهم من الإفادة من هذا الفن برسائله ، وبمختلف أنواع العلاقات في المجاز وظفوها غالباً بما ينسجم وأغراضهم .
ومن أمثلة ذلك ما جاء في رسالة لابن أبي الخصال قوله داعياً للمخاطب : " ...
وأصبح في السُرور وأمس ؛ تهمني عليك النِعْمُ والسُّعُودُ... " ، فالمقصود بالسرور
النعم والراحة التي هي سبب في سرور الإنسان .

ومن ذلك قول ابن أبي الخصال : " ... ولئن تمت على ما أراه ليذُمَّنَّ عند
الصَّبَّاحِ سُرَاهُ ، وليرينَّ من الفزع ما رآه صاحب أبي بصير... " (٢) ، والقصد :
وليشعرن من الفزع ، لأن الفزع لا يُرى ، بل يحصل الشعور به بعد رؤية ما
يستدعيه .

وقوله أيضاً من رسالة تقريرية على لسان الأمير : " ... فإذا وصل إليكم
خطابنا هذا .. فامتثلوا مذهبنا فيه ، وأشيعوه عند الخاصِّ والعامِّ ، ليرفعوا أيديهم
بالتضرُّع في أوقات المناجاة والقيام ، ويجمعوا بين تعفير الجباه ، وتحريك الشِّفاه
... " (٣) ، فإن السجود فيه تعفير لسائر أجزاء الوجه لا الجبهة وحدها ، وكذلك الدعاء
يكون بتحريك سائر أعضاء الفم ، والشفاة جزء منه ، وقد استخدم الكاتب في
العبارتين الجزء واستدل به على كله .

ومن الأمثلة على ذلك قول الكاتب في مدح مخاطبه : " ... والنفوس
مستشرفة ، وليوم وروده الحميد مُعترفة... " (٤) ، والاستشراف يعني رفع البصر
للنظر إلى الشيء (٥) ، فهو يكون بالعين التي هي جزء من النفس .

(١) علوم البلاغة : البيان والمعاني والبيدع ، أحمد مصطفى المراغي ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ط ٣ ،
١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م ، ص ٢٥٦ .

(١) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٢٢٦ .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٦٠٦ ، انظر أمثلة ص ٥٥ ، ٤٩٥ ، ٥٤٩ .

(٣) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٥٤ .

(٤) لسان العرب : مادة (شرف) مج ٧ ص ٩٠ .

(٥) الإيضاح : ص ٢٥١ .

(٦) رسائل ابن أبي الخصال ص ١٦٤ .

وكما جاء في قول ابن الخصال: " ... وإني لأسرع إليك من الظمآن إلى الماء، والحرآن إلى برد الهواء.." ^(١) ، فإن إسراع الظمآن يكون لمحل الماء كالبنر ونحوه ، وتوجه الحرآن يكون لمحل البرد أي موضع الظل ، وإنما عبر الكاتب بما يحلّ في المكان عن المكان نفسه ، عناية واهتماماً بما يحل فيه ، ليظهر لهفته إلى صديقه أينما حلّ.

ومن ذلك قول الكاتب في زرورية : " ... والبركة تُرفرفُ على سمائمكم ، وتحومُ حول فنائكم ... وتستنأسُ بناديكم ، وتنحط على أيديكم .. " ^(٢) ، والقصد الاستئناس بكم ، لكنه أطلق لفظ النادي – المحل – وأراد أهله المتواجدين .

وكقول الكاتب يصف بلاغة أحد أصدقائه الكتاب : " ... بل أهزُّ مولاي فاستعينُ بنانه ، واستعير لسانه ... " ^(٣) ، واللسان آلة الكلام ، وهو المقصود في العبارة وقد عبر الكاتب بالآلة عن فعلها ، لأن جودتها وصحتها فيها جودة ما يصدر عنها .

وعلى هذا النحو استخدم الكتاب بعضاً من ألفاظهم على سبيل المجاز وبعلاقات مختلفة حسبما يتطلبه القصد ، فاتخذت ابن أبي الخصال في هذا الغرض إنموذجاً للكتاب ، فيحقق جذب انتبه القارئ ، ويدفعه للبحث عن سبب تلك الألفاظ في غير ما وضعت له ، كما أن استخدام معظم علاقات المجاز المرسل جاء مؤكداً للمعنى على نحو ظاهر ، كما مثلنا في علاقة (المحلية والحالية) وغيرهما ، ولاشك أن كل هذا يعبر بحال من الأحوال عن مقدرة ابن أبي الخصال على التصرف في لغته بقصد البيان والتوضيح ^(٤) .

(١) الإيضاح : ص ٢٥١ .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال ص ٤٠٧ ، انظر أمثلة أخرى ص: ٣٥٨، ٢٦٥، ١١٧ .

(٣) فن الرسالة عند الكاتب ابن أبي الخصال (المجاز المرسل) أمل برزنجي : ص ٢٢٢-٢٢٣-٢٢٤-٢٢٥-٢٢٦ .

الصورة الكنائية :

لقد استعان الكاتب بالتعبير الكنائي في رسائلهم لأنها أكثر تأثيراً وإمتاعاً ،
وأنفذ إلى العقل والعاطفة من التعبير العادي المباشر ، كما أنها تكسب المعنى
شفافية وغموضاً^(١) .

ومن أمثلة الصور الكنائية ما جاء في رسالة ابن الخصال يصف ماء الوادي
فيقول : " لم يعهد قذاةً ، ولا احتَمَلَ لشاربه غِلاً ولا أذاةً ، يعطي شاربه وراشفه
بعد التمتع ، ويعنى بطبع برده عن التَطْبُع والتصنُّع ، يستأذن عليه التَّسِيم فيرد ،
وينظرُ إليه فَيَبْتَرِد. فما للوزير الأجل ، عن مثل هذا المحلِّ ، وهو يناديه : هَلَمْ عن
الحرور إلى الظلِّ " ^(٢).

فالكاتب بنفيه تواجد الشوائب عن الماء ، وبنفيه الضرر عن شاربه ، أثبت
لهذا الماء الصفاء والنقاء والريِّ والعذوبة ، وهي كناية جميلة موقفة ، حيث لم
يكتف الكاتب بتصوير صفاء الماء ، بل عزز ذلك بتوضيح أثر صفائه على شاربه
ليكون المعنى متشاكلاً .

ومن ذلك قو الكاتب ابن القاسم في معرض إشادة بصديقه ابن عياض في
رسائلهم في وصف النجوم : " ثم ما نمت عن ذي إكبار لك وإجلال ، تُنَيِّمه بسحر
الكلام ، وتُجسِّمه أن يستقل استقلالك بالأعلام ؛ ... إذ لا يتعاطى مضمارك ، ولا
يشقُّ عُبارك " ^(٣).

فالكاتب يصور إكباره وإجلاله لصديقه ، ويصور أدبه الرفيع ، وبيانه
الخلاب في الكلمات والتعابير بصورة كنائية جميلة هي سحر الكلام فتأثير هذا
البيان الساحر قد امتد إلى مشاعره التي أحبتة فأحبت بلاغته وبيانه ؛ بل كلفته أمراً
ربما لا يستطيعه ، فهو السابق في مضمار التفوق والبيان ، ولا يضاهيه أحد، ولا
يدركه لاحق ، وهي إحياءات أشع ضياءها التركيبُ الدلالي للكناية في (مضمارك)

(١) البلاغة العربية : ص ٢٣٥ .

(٢) رسائل ابن أبي الخصال : ص ٢٦١-٢٦٢ .

(٣) الخريدة ، ق٤ج٢ : ص ٣٨٧-٣٩٧ .

و (ولا يشق غبارك) استوحاها الكاتب من صورة الجواد النبيل المتميز في حلبات السباق بسرعه وقوته ، وتحقيقه المراكز المتقدمة على الدوام. فالتعبير التصويري في (لا يتعاطى مضمارك ، ولا يشق غبارك) كناية عن تفوقه وتفرد في البلاغة والبيان .

وهي صورة جميلة تشف عن مجاملة أخوية رقيقة ، بهذا التصوير المبالغ فيه - نوعاً ما - لإظهار التميز والتفرد ، والمهارة الفنية التي يتسم بها أدباء الأندلس وكتابه ، فكلا الأديبين من القمم السامقة المشار إليها بالبيان في الأندلس.^(١)

صور أخرى مبنية على التشخيص :

لقد اعتمد الكتاب في صورهم على التشخيص والتجسيم ، وذلك بالباس المعاني صوراً حيّة ، وخلع الصفات الإنسانية على المنعوتات ، وبتت الحياة والحركة والنشاط فيها^٢ .

ومن الأمثلة على ذلك قول أبي المغيرة بن حزم مصوراً سحر الطبيعة الأندلسية وقت الربيع ، ومشخصاً عناصرها في صور إنسانية مشرقة : " فالأرض قد نشرت ملاءها ، وسحبت رداءها ، ولبست جلبابها ، وتقلدت سخابها ... والأشجار قد نشرت شعورها ، وهزت رؤوسها ، والدنيا قد أبدت بشرها ، وأمطت عبوسها " (٣)

ولقد ظهر الجانب الحسي للصور البيانية على هيئة صور متعددة ، كان أبرزها الصورة الحركية^(٤)، حيث استعان الكتاب بالحركة في رسم صورهم البيانية . ومن الأمثلة على ذلك قول ابن خفاجة واصفاً بعد الصحو : " أذن الله تعالى للصحو أن يُطلع وينشرَ صحيفته ، فقشعت الرياحُ السحابُ ، كما طوى

(١) الرسائل الإخوانية عند كتاب الأندلس في القرن السادس الهجري: ص ٣٥٦.

(٢) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري : ص ٣٦٥.

(١) اليتيمة ج: ٢: ص ٥٤.

(٢) انظر أمثلة في الذخيرة ق ١م١، ص ٥٠٢، ق ١م٢، ص ٢٩٠، ٢٣٦، ق ٢م٣، ص ٢٤٦، الخريدة : ج ٢، ص ٢٩٨.

السَّجْلُ الْكِتَابَ ، وَطَفَقَتِ السَّمَاءُ تَخْلَعُ جَلَابِهَا ، وَالشَّمْسُ تَحْطُّ نِقَابَهَا ، وَانْطَلَقَتْ
الدُّنْيَا كَأَنَّهَا عُرُوسٌ تَجَلَّتْ وَقَدْ تَحَلَّتْ ..."^(١).

فقد قدم الكاتب صورة بيانية جميلة قائمة على الحركة ، حيث استطاع من
خلال تشبيهاته التي اختارها أن يصوّر كلّ شيء في الطبيعة متحركاً.

وقد نجد مثل هذه الصورة القائمة على الحركة في قول ابن الحنّاط واصفاً
الصيد : " وأقبلت الزوارق تهفو بقوادم غربان ، وتعطو بسوالف غزلان ...
تحسبها فوق مائة رعيّلٍ دهم مصنوفة"^(٢) .

فلقد وفق الكاتب في تصوير الحركة التي نحسّها في اندفاع الزوارق بقوة
تحاكي خفقان أجنحة الغربان ، وتحرك أعناق الغزلان ، وارتجاج مجموعات
الخيّل المصنوفة"^(٣).

(٣) الذخيرة : ق ٢٣ ، ص ٥٤٣ .

(٤) الخريدة ج ٢ : ص ٢٩٩ .

(٥) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري ، ص ٣٦٦ .

الطباق:

أخذ الكتاب الأندلسيون بالكتابة المتأنقة، وأكثروا من استعمال المحسنات البديعية في رسائلهم على نحو ما كان يفعل الكتاب المشاركة. ومنها الطباق، ويعتبر من أهم المحسنات البديعية التي استعملها الكتاب في ميدان عنايتهم بالمعنى، واهتمامهم بالجمل التي تعبر عنه، وترجم مشاعرهم وعواطفهم..

وهو نوعان: طباق، إيجاب إذا كانت الكلمتان مختلفتين لفظاً ومعنى. وطباق سلب إذا تحقق التضاد بوجود اللفظ ومنفيه في الكلام^(١).

ويظهر أن صيغ الطباق تظهر بدرجات متفاوتة في نصوص أدب الرسائل على اختلاف موضوعاتها وأغراضها.

كما ترد صور الطباق في كثير من الرسائل الوصفية، وخاصة في الربيعيات، والروضيات، ووصف مطر بعد قحط، ووصف الحيوان، والزرزوريات، والطرديات^(٢).

ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة لأبي محمد بن عبد البر في وصف أدني غزال، حيث يقول: "وينصبهما إذا أوجس، ويثنيهما إذا أنس..."^(٣) فلقد طباق الكاتب بين لفظي ينصبهما ويثنيهما وبين لفظي أوجس وأنس.

ومن أمثلة ذلك ما قاله أبو القاسم بن الجدي في رسالته التي عارض بها ابن سراج: "وقد أن الأوان لعقم شجره أن تُطلع من الثمر ألواناً"^(٤)، حيث نجد الطباق في كلمتي "عقم، تطلع"، قوله أيضاً: "وبروز صفحة الشمس من الحجاب"، والطباق في كلمتي "بروز، حجاب"^(٥)، وأيضاً في قوله: "ما عضدت الفروع الأصول"^(٦)، فنجد الطباق في كلمتي "الفروع، الأصول".

(١) التبيان في وجوه البيان: ص ١٧٠-١٧٢، كتاب صناعتي: ص ٣٠٧، ٣٢١، حسن التوسل: ص ١٩٩-١٠٢.

(٢) الذخيرة: ق ١ م ١، ص ٥٠٢، الخريدة: ج ٢، ص ٣٠٢.

(٣) نفسه: ق ٣ م ١، ص ٢١٤.

(٤) نفسه: ق ١ م ٢، ص ٣٤٨.

(٥) نفسه: ص ٣٤٩.

(٦) نفسه: ص ٤٥٠.

وأيضاً ما جاء في رسالة أبي محمد بن عبدالغفور في الغيث بقوله : " وبيده النفع والضرر "(١) ، " وضحك ثغر الروض بعد عبوس "(٢) ، ومن ذلك أيضاً: " ونُقِلَ إلى سعة الرحمة من ضحك البؤس "(٣) ، حيث نجد الكلمات المتضادة في المعنى وهي : " النفع مقابلها الضر ، الضحك مقابلها العبوس ، السعة ومقابلها الضحك ، الرحمة ومقابلها البؤس " . فتلك الكلمات تدل على مشهدين متقابلين في النص .

ومن الطباق الذي أورده ابن الباجي في رسالته : " و اكتست الرياض غبرة بعد حُضرة ، ولبست شحوباً بعد نضرة "(٤) . ومن ذلك أيضاً : " والوجوه ضاحكة بعد عبوسها "(٥) .

ولقد مثل ابن الجد في رسالته أيضاً على الطباق ، حيث وردت الكلمات المتقابلة في رسالته ، ومن ضمنها : " وصدع ليل اليأس صبح الرجاء ، وخلع عامل البأس والي الرخاء "(٦) ، حيث نجد كلمة ليل يقابلها صبح ، وكلمة يأس يقابلها رجاء ، وكلمة عامل يقابلها والي ، وكلمة بأس يقابلها رحاء .

ومن الواضح أن الكاتب الأندلسي يلجأ إلى الطباق من أجل تزيين الكلام وتنميته لأن في الألفاظ يدفع السأم ، والملل عن المتلقي ، ويشد انتباهه (٧) .

ويظهر جلياً أن أكثر صور الطباق التي ظهرت في نصوص أدب الرسائل كانت من نوع الإيجاب الذي يقوم على اختلاف الكلمة لفظاً ومعنى .

ولعل مرد ذلك أن طباق الإيجاب يتسم بالسهولة والوضوح ، وهذا مما ينسجم مع طبع الكتاب الأندلسيون وذوقهم ، وميلهم إلى السهولة ، والابتعاد عن

(٤) نفسه : ص ٣٤٣ .

(٥) نفسه : ص ٣٤٤ .

(٦) نفسه : ص ٣٤٤ .

(٧) الذخيرة : ق ١م ١ ص ١٩٦ .

(٨) الذخيرة : ق ١م ١ ص ١٩٦ .

(٩) الذخيرة : ق ١م ١ ص ١٩٦ .

(١) النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين ، خضر ، ص ٥١٠ .

التكلف والصنعة بقدر المستطاع^(١). وهناك ميزة أخرى تبرر كثرة استخدام هذا اللون من الطباق في الرسائل هي أنه أدعى إلى تزيين الكلام وتنميته لأن فيه تنوعاً في الألفاظ، مما يجلب انتباه السامع .

السجع:

يعد السجع من أهم ألوان الزخرفة اللفظية التي تكسب الكلام رونقاً بما يضيفه من " جمال الإيقاع ، وحلاوة الجرس ، وعذوبة النغم " ^(٢). وقد كان السجع أكثر هذه المحسنات البديعية شيوعاً وهو سمة زخرفية لفظية تختص باللفظة المركبة في جملة تتوافق فيها بعض فواصل الكلام المنثور على حرف واحد^(٣) وقد حمده الكلاعي إذ لا وجه لذمه إلا أن يدل على التكلف^(٤)، وعده ابن الأثير ميزة محمودة، وإلا لو كان مذموماً لما ورد في القرآن الكريم^(٥) ولقد أجاد الكتاب الأندلسيون في استعمال السجع، وحذقوا مواطن الروعة والجمال فيها ، لكنهم لم يتبعوا السجع المشرقي، ولم يدونوا رسائلهم بأسلوب السجع الذي شاع في المشرق في القرن الخامس الهجري، بل عنوا باستعمال الأسلوب المترسل من السجع الرشيق، ولعل مرد ذلك حرصهم على ما يحققه من تنعيم موسيقي، وإيقاع صوتي وما يضيفه من رونق لفظي جميل^(٦).

وعلى الرغم من أن الكتاب الأندلسيون في القرن الخامس الهجري كانوا كلهم يسجعون^(٧)، إلا أنهم يتفاوتون فيما بينهم في استعمال السجع وتزيين الكلام به، ويختلفون في مقدرتهم بين الإجادة والتقصير. ولعل سبب ذلك تفاوتهم في التكوين

(٢) النثر الأندلسي: ص ٥١٠-٥١١.

(٣) البلاغة العربية (البيان والبدیع) ، د. وليد قصاب ، دار القلم ، دبي - الإمارات ، ط الأولى (١٤١٨ هـ - ١٩٩٥) ، ج ١ ص ١٩٥ .

(٤) المثل السائر : ج ١ ، ص ١٩٢ .

(٥) إحكام صنعة الكلام : ص ٢٢٧ .

(٦) المثل السائر: ج ١ ، ص ١٩٣ .

(١) أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري: ص ٣٤٧.

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص ٣٢٥ .

الثقافي والكفاءة الفنية، واختلافهم في الأحوال والظروف النفسية والبيئية، إلى جانب اختلاف الموضوعات التي يعالجونها^(١).

ومما نلاحظه في الرسائل الوصفية على ورود السجع بأنواعه المختلفة ، حيث استخدم الكاتب جميع أنواع السجع القصير والمتوسط والطويل .

ومن أمثلة السجع القصير قول ابن برد في رسالته : " يا معشر الشجر، وعامة الزهر^(٢) " ، وهذا من نوع السجع القصير الذي يعتمد على الجمل القصار ويكون السجع فيها متوالياً ، ومثال ذلك أيضاً ما قاله الحميري : " لبادرتها أبأونا ، ولعقدها أوائلنا^(٣) " ، وكذلك قوله : " أوجبت تقديمه ، ورأت تأهليه^(٤) " .

وأيضاً من الأمثلة على السجع القصير ما قاله ابن الباجي في رسالته: " وجهل بدره ، وغرتك فجره، و أخلاقك زهره ، وثناؤك ذرة وعطره ، وتعمل في أمر الدنيا رأيك ، وتترك الهموم حيث تركها الناس قبلك ، ولو صلح الكمد لأحد لكنت أنا أحق من لزمه ، وأثبت عليه قدمه ، لأنني سريع الذبول ، وشيك الأفول ، لا يصحبنى الظهور إلا قليلاً ، ولا أمنح من متاع السرور إلا تعليلاً ، غير أنني مغتنم لساعاتي ، آخذ من الأنس بقدر استطاعاتي ، وقديماً أكرمني مولاي فلا يهني^(٥) " . حيث نجد قصر الجمل لغاية الفاصلة ، حيث تتكون من كلمتين فقط .

وما جاء في رسالة ابن عبد الغفور في وصف الغيث : " رحمة لعليل النبات، ورقة لأليل المهجات فمنم وشي التلاع ، بيد لطيفة صناع ، ورصع تيجان الأكمام ، ينظف الغمام السجام ، فاهتزت القطارية لذلك القطار ، واشتملت على محسنها من الأوطار ، وضحك ثغر الروض بعد عبوس ، وثقل إلى سعة الرحمة

(٣) النثر الأندلسي: ص ٤٥٤.

(٤) الذخيرة، ق ٢، م ١، ص ١٢٧.

(٥) نفسه : ص ١٣١.

(٦) نفسه : ص ١٣١.

(٧) نفسه : ص ١٩٥.

من ضنك البؤس ، وسحبت فواحق الأنهار مذاربها ، ونشرت عرائس الأزهار
ذوائبها ، ناظمة من لآلىء الطل عقودها ، مألثة لبنتها من جوهرة الرائق وجيدها ،
تفوح مجامر أزهارها ، وتلوح خفيات أسرارها ، في مرائي أنوارها ، فترمي
الذاهل برياًها ، وتحيي النائم وما حيّاها ، مؤذنة بإدراكها ، وقام من مترنم الأطيّار
، على منابر الأشجار ، خطيب يتلو ما حبر من الثناء ، على سابغ النعماء ، وسائغ
رحيق الآلاء " (١) . وأنت هنا الجمل قصار وأغلبها يتكون من ثلاث كلمات
فقط.

وأيضاً ما قاله ابن حسداي : " ولديك من مناهل الكرم ، وفواضل النعم ، ما
يزري بالمزّن ، ويوفى على الديم " (٢) ، وقوله أيضاً : " قائد النوار ، ووافد الأزهار
" (٣) ، حيث نلحظ فيها قصر الجمل المسجوعة مع التزام بالوزن والقافية للعبارة
دون ركافة في الكلمات .

وقد أستخدم أيضاً السجع المتوسط التركيب وتكون فيه أطول من سابقها .
ومن أمثلة ذلك قول ابن برد : " وصيغ فينا القريض ، ورگبت على
محاسنا الأعاريض " (٤) . حيث نلحظ في المقطع السابق ابتعاد السجعة قليلاً عن
سابقتها ، ومثاله أيضاً ما قاله الحميري : " من استحقاقه ما لا يستحقه ، واستئنهاله
ما يستأهله " (٥) حيث جاءت الجمل طويلة نوعاً ما .

ومن السجع الطويل وهو تكون فيه الجمل طويلة نوعاً ما وتكون السجعة
بعيدة عن سابقها ومن ذلك ما قاله أيضاً ابن برد في رسالته : " ولم نعلم أن فينا
من له المزيّة علينا ، ومن أولى بالرئاسة منا " (٦) ، ومنها قول ابن برد أيضاً : " لقد

(١) نفسه : ص ٣٤٤ .

(٢) نفسه : ق ٣ ، م ١ : ص ٤٧٢ .

(٣) نفسه : ص ٤٧١ .

(٤) نفسه : ص ١٢٨ .

(٥) نفسه : ص ١٣١ .

(٦) نفسه : ص ١٢٨ .

جئت بها أوضح من لَبَّةِ الصباح ، وأسطع من لسان المصباح " (١) ، نلاحظ على المقطعين السابقين طول السجعتين وابتعادها عن بعض بسبب طول الجمل .
ومن ذلك أيضاً قول الحميري : " ورأت أنّ مخاطبة من أخطأ تلك الخطيئة ، وأدنى من نفسه تلك الدنية " (٢) وقوله أيضاً : " اللبيب من عدت سقطاته ، والأديب من حصرت صفواته... " (٣) .

وأيضاً ما قاله ابن حسداي في رسالته : " وقد ساءني ما عاينت من ضناك ونحولك ، فبادرت إشفاقاً من ذبولك " (٤) . وفي موضع آخر يقول : " فقممت عن إساءة الفصل عُذراً ، ونحلت الشتاء على الربيع فخراً ، وفضلت الورد سيّد الأزهار طراً " (٥) . لقد اعتمد ابن حسداي في سجعه الطويل على طول الجمل في العبارة الواحدة ، حيث كثرة الكلمات عند الفواصل مع التزامها بسجع الحرف الأخير قبل الفاصلة .

وأيضاً ما جاء في رسالة ابن عبد الغفور : " والله جلّت عظمته أوامر تُحيل المنيرة عن طباعها ، وتسلب من حصى المعزاء فضل شعاعها ، وتردّ في خلف تمرية حلب أرضاعها " (٦) ، وقوله أيضاً : " وإنّ أحقّ النعيم بشكر لا تنضب مدوده ، وحمد تتجاوز حدّ المعهود حدوده " (٧) .

ومثال ذلك أيضاً ما قاله ابن الباجي : " وقد أتيت في أواني ، وحضرت وغاب أفراني " (٨) ، وفي موضع آخر : " لا يصحبني الظهور إلا قليلاً ، ولا أمح

(١) نفسه : ص ١٢٩ .

(٢) نفسه : ص ١٣١ .

(٣) نفسه : ص ١٣١ .

(٤) نفسه : ق ٣م ١ : ص ٤٧١ .

(٥) نفسه : ص ٤٧٠ .

(٦) نفسه : ق ٢ ، م ١ : ص ٣٤٢ .

(٧) نفسه : ص ٣٤٢ .

(٨) نفسه : ق ٣ ، م ١ : ص ١٩٤ .

من متاع السرور إلا تعليلاً^(١) ، ونلاحظ أن الجمل السابقة جاءت طويلة ، وتتألف من عدة كلمات ، وتنتهي بنفس السجعة .

ومنها التوازي في السجع وهو توازي الجمل بعدد كلماتها واتفاقها في الردي الأخير قبل الفاصلة ومن ذلك قول ابن برد : " وسميها وشتويها ، وربيعيها وقطيها^(٢) " ، وقولة بجملة : " رباين بين أشكالها وصفاتها ، وباعد بين منحها وأطيائها ، فجعل عبداً وملكاً ، وخلق قبيحاً وحسناً^(٣) " .

فالتوازي في السجعات واضح بين كل جملتين ، حيث تولدان نغماً وإيقاعاً متكاملًا، تلعب فيه الجملة الثانية دور الصدى للجملة الأولى ' فتؤكد لها دلاليًا ، وترسخ مضمونها في ذهن المتلقي من خلال الإلحاح عليها بهذا الإيقاع المطرب المشجي^(٤) .

ويلاحظ أن الكتاب الأندلسيون قد مالوا إلى الاعتدال في استخدام السجع، فلم يسرفوا في استخدامه، ولم يتفننوا في اصطياده، وقد جروا في هذا المجال مع ما يتفق وطبعهم ومقدرتهم الثقافية، وما لهم من كفاءة في تحسين المعنى أو ابتكاره أو توليده في أثواب جديدة في الصياغة. وفي هذا ما يدل على أن أساليب الكتاب كانت أقرب إلى العفو والطبع، حيث ورد السجع في رسائلهم عفو الخاطر غير المتكلف، قصير الفقرات.

الازدواج :

لقد كان الازدواج من المحسنات اللفظية التي استخدمها الكتاب لتنميق رسائلهم وتحسينها، وقد جاء اهتمامهم به ملازماً للاهتمام بالسجع لأنه ذو علاقة وثيقة به، بل هو قسم من أقسامه. إذ لم يكن الكتاب يلتزمون حرفاً واحداً في جميع فواصل الجمل والعبارات، وإنما كانوا ينوعون بين حروفها، فإذا اقتصر هذا

(١) نفسه : ص ١٩٥

(٢) نفسه : ص ١٣٠

(٣) نفس : ص ١٢٧ .

(٤) ميدان الحوار الأدبي بين المشرق والأندلس : ص ١٩٢ .

التنوع على سجتين اثنتين تكونان على حرف واحد كان ذلك ازدواجاً في حين يكون السجع على فاصلتين أو أكثر. (١)

وقد عد أبو هلال العسكري الازدواج من حميد صفات النثر "إذ لا يحسن منشور الكلام، ولا يخلو حتى يكون مزدوجاً، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج ولو استغنى كلاماً عن الازدواج لكان القرآن لأنه في نظمه خارج من كلام الخلق، وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات، فضلاً عما تزواج في الفواصل منه..." (٢).

ويبدو أن سمة الازدواج قد ظهرت في كثير من موضوعات أدب الرسائل وأغراضه، شأنها في ذلك شأن سمة السجع، حيث تكثر صور الازدواج في أكثر موضوعات الرسائل الوصفية خاصة في الربيعيات، والروضيات، والزهريات، ووصف مطر بعض قحط، ووصف الحيوان، ووصف الليل والرياح، والزرزوريات وغيرها (٣).

وتظهر سمة الازدواج في بعض رسائل المفاضلات والمفاخرات بيت الأزهار والورود، ومن الأمثلة على ذلك قول ابن حسداي مخاطباً النرجس على لسان رجل ظريف من خواص الأمير: "يا أيُّها الزُّهر الفارد، والنَّورُ الشَّاردُ، السَّاجِرُ بحدقه وأجفانه، الناظر بورقه وأغصانه، الباهر بورقه وعقبانه ما لي أرى فُضْبَكَ غبراً ذابلاً.." (٤).

فقد تضمَّن هذا النص عدداً من صور الازدواج التي أعطت الجمل والعبارات نغماً موسيقياً جميلاً وقد تمثل ذلك بقول الكاتب: الزُّهُرُ والنَّورُ، الفارد والشَّارد، بحدقه وبورقه، أجفانه وأغصانه.

(١) التبيان في علم البيان المطوع على إعجاز القرآن لعبدالواحد الزملكاني، تحقيق أحمد مطلوب، مكتبة العاني، بغداد ١٩٦٤م: ص ١٧٢-١٧٣، حسن التوسل إلى صناعة الترسُّل لشهاب الدين الحلبي، تحقيق أكرم عثمان يوسف دار الرشيد للنشر، بغداد - ١٩٨٠م: ص ٢٠٦-٢١٤.

(٢) الصناعتين: ص ٢٦٠-٢٦٣.

(٣) البديع: ص ١١٣، القلائد، ص ١٠٣-١٣٤، الذخيرة: ق ٢ م ١، ص ٣٤٧.

(٤) الذخيرة ق ٣ م ١، ص ٤٧١.

ومما ورد من الازدواج في الرسائل الوصفية قول أبي القاسم ابن السقاط في وصف يوم ممطر : "يومنا - أعزك الله - قد نقبت شمسه بقناع الغمام ودُهَّبت كأسه بشعاع المدام، ونحن... من بواسم الزهر، في لطائم العطر، حركات ونغمات... " وما إلى ذلك من الصور المتوالية.

كذلك نجد مثل هذا الازدواج في رسالة لأبي القاسم ابن الجد عارض فيها رسالة أبي الحسين ابن سراج في صفة الزريزير، حيث يقول: "حسنت لك يا سيدي أبا الحسين ضرائب الأيام وتشوقت نحوك غرائب الكلام، واهتزت لمكاتبتك أعطاف الأفلام وجادت على نحلِكَ أطفاف الغمام..."^(١) .

لقد تضمنت هذه الرسالة عدداً كبيراً من صور الازدواج والجمل المتشابهة في فواصلها، والبعيدة عن التكلف والصنعة وتمثل الازدواج بقوله : " الأيام والكلام " ، " أعطاف و أطفاف " ، " الأفلام والغمام " .

ومن ذلك قول أبي بكر بن صقلاب : " وقفت منه على الرياض العبة ، والحياض الغدقة ، وعندي من آثاره المُطربة ، وأخباره المغربية..."^(٢) . وقد صور الكاتب الطبيعة وأسبغ الأوصاف البديعية فوق الازدواج بين " الرياض والحياض" ، " العبة والغدقة " ، " آثاره وأخباره " ، " المطربة والمغربة " .

ومن الرسائل التي تزخر بالازدواج رسالة ابن صاحب الصلاة التي كتبها لأحد أصدقائه في التحفظ من الفار فيقول : " استوهب الله لك أيها العماد الأعلى ، والسراج الأجلى ، والطود الأشم ، والبدر الأتم ، من النعم أبقاها ، ومن العصم أوقاها ، ولا زلت لعنان السيادة مالكا ، وفي عنوان السعادة سالكا"^(٣) .

(١) نفسه: ق ٢ م ١، ص ٣٤٨.

(٢) رسائل أندلسية: ص ٣١٦.

(٣) رسائل ومقامات أندلسية: ٦٥.

فقد أضيف الأزواج على هذه المقدمة صوراً جميلة من الإيقاعات الموسيقية التي تضافرت مع الحلى البديعية الأخرى كالسجع والجناس ، فأبرزت قدرة الكاتب الإبداعية في تحقيق الانسجام والتوافق بين الجمل والعبارات .^(١)

وتمثل الأزواج في قول الكاتب : " الطود والبدر" ، "الأشم والأتم" ، " النعم والعصم" ، "أبقاها و أوقاها" ، "عنان وعنوان" ، "السيادة والسعادة" ، "مالكاً وسالكاً".

الجناس:

من الزخارف اللفظية التي تكسب الأسلوب موسيقى إيقاعية مطربة من خلال التجانس الشكلي للألفاظ ، واختلاف المعنى^(٢).

وكان الجناس من الألوان الزخرفية^(٣) التي استعمالها الكتاب الأندلسيون لتزييق كلامهم وتنميجه. ويلاحظ أن عنايتهم بالجناس كانت أقل من عنايتهم بالسجع. وقد تباين استعماله وتفاوت بحسب الأغراض والموضوعات، ولعل مرد ذلك حرص الكتاب على الابتعاد عن التكلف، واكتفائهم بالسجع والأزواج وما يحدثانه من تنغيم وموسيقى وإيقاع يعوض عن استخدام الجناس.

وتتفاوت مقادير صور الجناس في الرسائل الوصفية، وأكثر ما تظهر في الربيعيات، والروضيات، ووصف هطول المطر بعد القحط. ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالة لأبي حبيب الحميري يصف فيها خيرى أهدي إليه، حيث يقول: "لا نِد له إلا النَّد^(٤)" "ولا مَسك له إلا المِسك^(٥)". وقد قبضته مشغولاً به، مستلذاً بقربه

(١) الرسائل الإخوانية عند كتاب الأندلس "محاورها المضمونية وسماتها الشكلية ، ابتسام الصبحي ، ٢٨٨.

(٢) عن الجناس : انظر الصناعيتين ص ٣٢١-٣٣٦ ، المثل السائر : ج ١ : ٢٤٦ - ٢٦٤ . علوم البلاغة : ٣٣٠ ، البلاغة العربية ٣٧٨ - ٣٨١ . حسن التوسل : ص ١٨٣-١٨٩.

(٣) الصناعتي: ص ٣٢١-٣٣٦ ، المثل السائر: ج ١، ص ٢٤٦-٢٦٤ ، حسن التوسل: ص ١٨٣-١٨٩.

(٤) النَّد: المثل والنظير، والنَّد: ضرب من الطيب (اللسان : مادة ندد).

(٥) المَسك: الجلد، المِسك: ضرب من الطيب (اللسان: مادة مسك).

متعجباً من حسن اختياره لاستنارة باستهتاره، تحت جناح الظلام ليسلم من الجناح^(١)...^(٢) حيث جانس الكاتب بين النَّدِّ والنَّدِّ، والمَسْكَ والمِسْكَ، جَنَاحٌ وجُنَاحٌ. ومن أمثلة ذلك ما أورده ابن برد الأصغر في رسالته على الجناس : " ودعونا إليه ، ... وبنى ما دعي إليه "^(٣)، حيث تم الجناس ما بين الكلمتين : إليه وإليه، حيث تساوت الحروف فيما بينها دون زيادة أو نقصان .

وقوله : " ما أنحل جسمي ، ومكّن سُقْمِي ، وإذ قد أمكن البوح بالشكوى ، فقد خفَّ ثِقْلُ البُلُوى "^(٤) ، " وصيغ فينا القريضُ ، وركبتُ على محاسننا الأعاريض "^(٥)، حيث نلحظ الجناس الناقص ما بين المفردات جسمي وسقمي والشكوى والبُلُوى والقريض والاعاريض ، والتي تشابهت فيها بعض الحروف مع إعطاء معنى مختلفاً فيما بينهما .

وما قاله ابن برد أيضاً : " وسميها وشتويها ، وربيعيها وقيطيها "^(٦)، وجملة " رباين بين أشكالها وصفاتها ، وباعد بين منحها وأطيائها ، فجعل عبداً وملكاً ، وخلق قبيحاً وحسناً "^(٧).

ومثل ما قاله الحميري في معارضته لابن برد : " وأشرفُ الحواس العين، إذا هي على كلِّ مُتَوَلِّ عَيْنٍ "^(٨)، فكلمتا " العين وعين " فيهما جناس تام ، حيث تشابهت في حروفها واختلفت في معناها ، ويقول في موضع آخر : " وهو نورُ البهار ، لبادي فضله بُدُوّ النهار "^(٩) حيث نلحظ الجناس الناقص في الكلمات التالية : الدميمة والذميمة والبهار والنهار ، حيث تساوت في عدد الحروف ولكنها اختلفت

(١) جناح الظلام: جَانِيهِ، والجُنَاح: الميل إلى الإثم (اللسان: مادة جنح).

(٢) البديع : ص١١٣.

(٣) الذخيرة : ق٢، م١، ص١٢٧.

(٤) نفسه : ص ١٢٩.

(٥) نفسه : ص١٢٨.

(٦) نفسه : ص١١٣٠.

(٧) نفسه : ص ١٢٧.

(٨) نفسه : ص ١٣١.

(٩) نفسه : ص ١٣١.

في حرف واحد من كل كلمة واختلفت في المعنى ، فالجناس ناقص غير مكتمل في معناه وشكله .

وما جاء في رسالة ابن الباجي الي المقتدر قوله : " ولم أخل من خدمتك رتبتي ومكاني ، ولم أعر من الحضور بين يديك توبتي وزماني " (١) ، وفي موضع آخر : " لأنني سريع الدُّبول وشيئكَ الأفول" (٢) . فالكلمات المتجانسة هي رتبتي ونوبتي ومكاني وزماني والذبول والأفول تساوت كلها في الحروف واختلفت في المعاني ، وهذا ما نسميه بالجناس الناقص .

ويقول أيضاً : " وقد علم الوردُ موقع إمارتي ، وغني بلطيف إيمائي عن عباراتي " (٣) ، ويقول أيضاً: " ونضار الروض ولجئئهُ ، وقائد الظرفِ وفارسهُ" (٤) ، وقوله : " ووصلني فلا يصرمني ، ومنحني فلا يحرمني " (٥) . فأنت هذه العبارات متوازية في عدد حروفها وجملها وكلماتها وفواصلها ، وقد أحسن توظيفها فالعبارات المتوازية تعمق المعنى وتجذب القارئ للنص ، لما فيها من تنغيم موسيقى متواز ، وصنعة بعيدة عن التكلف (٦) .

ومن ذلك أيضاً ما ورد في رسالة لأبي جعفر ابن الأبار (٧) في وصف الربيع ومشاهده الجميلة، حيث يقول: "وبرد الأرض خضر، فوف من الظهر بمثل الأنجم الزُّهر (٨) والرياض راضية من الحياة، متبرجة بعد الحياء أهدت لها المزن

(١) الذخيرة ق٢ ، م١ : ص ١٩٥ .

(٢) نفسه : ص ١٩٥ .

(٣) نفسه : ص ١٩٤ .

(٤) نفسه : ص ١٩٥ .

(٥) نفسه : ص ١٩٥ .

(٦) توظيف الموروث الثقافي في النثر الفني الأندلسي في القرن الخامس هجري ، ص ١٥٧ .

(٧) هو أبو جعفر أحمد بن محمد الخولاني الأشبيلي أحد شعراء المعتضد ، توفي سنه ٤٣٣هـ (انظر ترجمته في:

الذخيرة: ق٢ م١ ، ص١٣٥ ، المغرب: ج١ ، ص٢٥٨) .

(٨) الزُّهر: جمع زهرة وهو نور كل نبات، والزُّهر: جمع زهرة وهو البياض النير "اللسان: مادة زهرة) .

درارها، فأبدت يواقيتها ودررها^(١)...^(٢)، حيث جانس الكاتب جناساً ناقصاً بين الألفاظ الزَّهر والزُّهر، الحيا والحياء دررها ودررها.

وأيضاً ما قاله ابن حسداي في رسالته: "إلى جانب السُّرور المقيم، وتسعد بالفوز العظيم، باستلام راحة الملك الكريم"^(٣)، ونلاحظ الجناس الناقص بين الكلمات: المقيم والعظيم والكريم، حيث تساوت في عدد حروفها ولكنها اختلفت في بعضها، وبذلك أعطت معنىً مختلفاً لكل واحدة منها. وقوله أيضاً: فإني قسيمها وحميمها ومني لوئها وشميمها"^(٤)، فالكلمات: قسيمها وحميمها وشميمها، قد تشابهت في أربعة حروف، التزمت فيها بالفاصلة واختلفت في أول حرفين. وما أورده ابن عبدالغفور في رسالته: "وتخول العاجز الزمن، منفسات الزمن، ووقد تذهب بما تهب، وتغير على ما به تغير"، فالكلمات: "الزمن والزمن، تغير وتغير"، فيها جناس تام ومن ذلك أيضاً: "تلحقُ بسوابق الرهان، في ميادين الأذهان"، "شابت مفارق الرياض، وغاضت مفعمات الحياض"، فالكلمات: "الرهان والأذهان، والرياض والحياض". فيها جناس ناقص حيث اختلفت بعض حروفها.

وقول ابن الباجي: "ورجفت الأكباد فزعا، ودُهلا الألباب جزعا..، واكتست الرياض غبرةً بعد خُصرة، ولبست شحوباً بعد نضرة"^(٥)، حيث جانس الكاتب بين فزعا وجزعا، غرة وخضرة ونضرة.

وكذلك ما أورده ابن الجد من أمثلة على الجناس قوله: "ريحاً بليلة الجناح، مخيلة النجاح..."، وكذلك: "تحملت ماء الوصال، .. وريحان الأصال"^(٦)،

(١) الدرر: جمع دره والدره في الأمطار: أن يتبع بعضها بعضاً، والدرر: جمل ذرة: وهي اللؤلؤة العظيمة (اللسان: مادة درر).

(٢) الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص ٣٢٥.

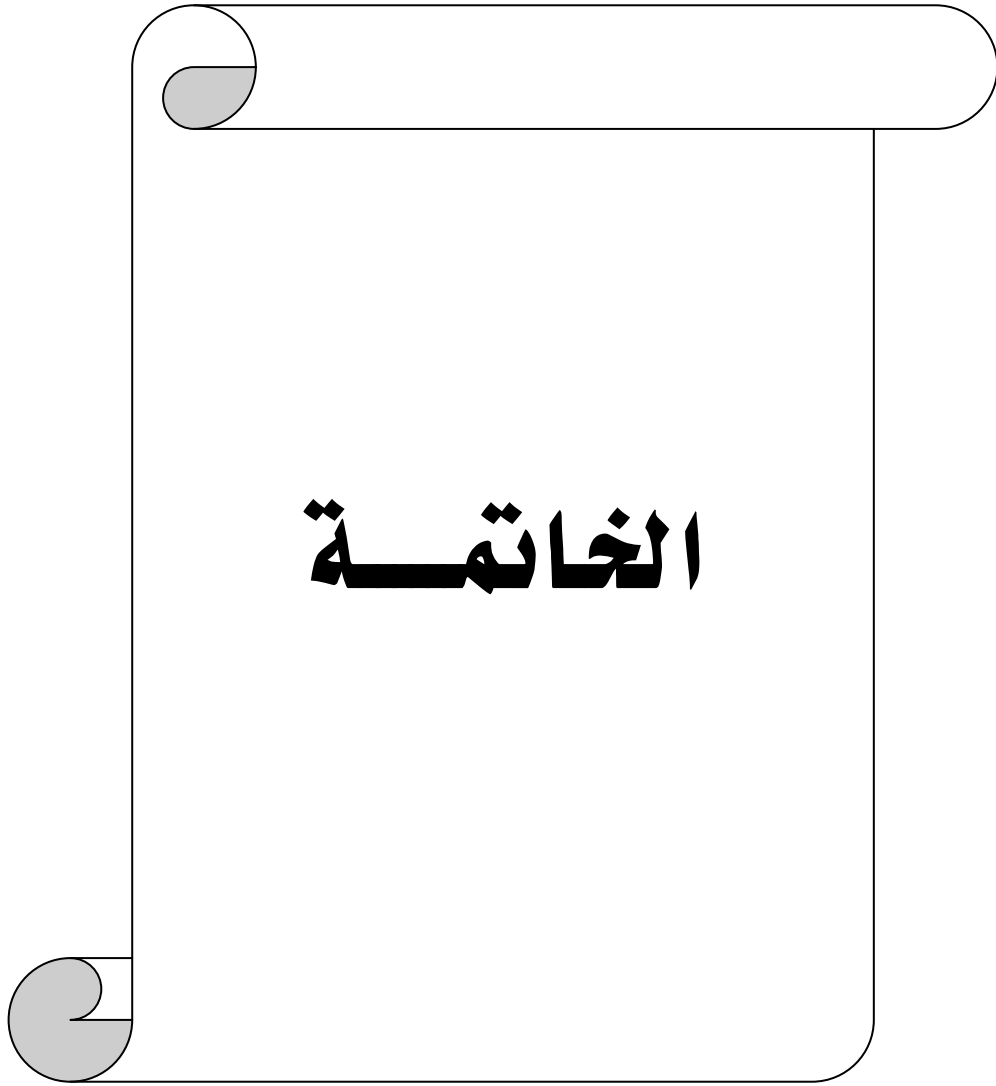
(٣) الذخيرة ق ٣، م ١، ص ٤٧١.

(٤) نفسه: ص ٤٧٢.

(٥) الذخيرة، ق ٢، م ١، ص ١٩٦.

(٦) نفسه: ص ٢٩٠.

حيث قدم ابن الجد مجموعة من الكلمات المتجانسة والتي أثرت نصّه بمادة لغوية
ولفظية ، بعيدة عن الملل والتكلف .



الخاتمة

تحررت هذه الدراسة في الكشف عن أدب الرسائل في الوصف الأندلسي إلى نهاية القرن السادس الهجري ، والدور الذي قامت به ، وإبراز أهميته ، وبعد طول بحث في فتياتهم وأساليبهم التعبيرية ، خلصت إلى مجموعة من النتائج أشير إلى أهمها ، وهي :

- ١- تُعد الرسائل الوصفية لوناً من ألوان أدب الرسائل المتعددة ، بل من أهم أنواعه التي أبدع كُتّابها ، فعكست صورة النفس الإنسانية في التعبير عن بيئتها المحيطة بها فتأثرت بها.
- ٢- إحاطة الرسائل الوصفية بالتفاصيل الدقيقة للمجتمع الأندلسي وبيئته ، فسورته تصويراً نابضاً بالحياة ، فرسمت الطبيعة بكل ألوانها .
- ٣- إن كتب الأدب العربي والتراجم تزخر بكثير من الرسائل الوصفية ، والتي أبدع كُتّابها في تديجها ، واشتمالها لأوصاف عدة ، تُنبئ عن ملامح الحياة في الأندلس .
- ٤- أن الكتابة في عصور الأندلسي ، كانت صناعة فنية بحد ذاتها ، لها خصائصها وميزاتها ، وهذا متمثلاً من عدد الكتاب الذين وردت لهم رسائل وصفية في هذه الدراسة .
- ٥- لم تُعرف الرسائل الوصفية كمصطلح أدبي يدل على نمطٍ خاص في أدب الرسائل ، ولكن جاءت الرسائل الوصفية ضمن الرسائل الإخوانية والطرديات ورسائل المناظرات والمقامات ورسائل الرحلات والمناظرات ، فهي لم تكن مستقلة ، لكنها اعتمدت على الوصف والتصوير ، ومن هنا جاءت تسميتها .
- ٦- بلغ كُتّاب الرسائل في العصر الأندلسي ، منزلة رفيعة الشأن عند ولاة الأندلس فكانوا مقربين من الولاة يحضرون مجالسهم ، ويتكلمون بلسان الحاكم ، وتقلدوا مناصب في الدولة ، وقيام عوائل كاملة للكتابة .

- ٧- كانت السمة الغالبة على ألفاظ الرسائل الوصفية السهولة والوضوح ،
والابتعاد عن التعقيد والغرابة ، إلا في بعض الرسائل التي تتطلب نوعاً من
التكلف والغرابة .
- ٨- تأثر الكتاب بطبيعتهم وذلك تبين من ألفاظهم التي كانت مستوحاة من
الطبيعة .
- ٩- أخذ الكتاب الأندلسيون بالكتابة المتأنقة ، فاستخدموا ألوان البديع كالسجع
والجناس والازدواج والتي برزت في رسائلهم ، وكما برزت بعض ألوانه
كالطباق والجناس التي جعلت معانيهم وعباراتهم في صور فنية بديعة
ومبتكرة .
- ١٠- لاحظت أن الصورة الفنية مستمدة من الطبيعة ولا غرو فقد كانت طبيعة
الأندلس الجميلة الساحرة بما فيها من أنهار وجبال ورياض مصدر إلهام
عند الكثيرين من أدباء الأندلس فاتخذوها أدوات فنية للتعبير عن مشاعرهم
وأحاسيسهم .
- ١١- تعد الرسائل الوصفية وثائق مهمة وشواهد حية لطبيعة الأندلس وبيئته ،
ممل جعل لها قيمة جمالية ضمنت بقاءها في المصادر التاريخية والأدبية .
- ١٢- برزت في الرسائل الوصفية الروح الإسلامية ، وذلك في الاقتباس من
القرآن الكريم والأدعية ، مما أكسبها أهمية خاصة في التراث العربي .
- ١٣- التضمن الشعري في رسائل الوصف ، ولوحظ تأثر الأندلسيين بشعراء
المشرق على اختلاف طبقاتهم وعصورهم منهم أبو الطيب المتنبي ، ولا
يمنع من إيرادهم شعر من شعراء الأندلس.
- ١٤- كانت الرسائل الوصفية ثمرة ناضجة قد انسجمت وطبيعة البيئة الأندلسية
والمجتمع الأندلسي وتفاعل الأديب معها وعكس لنا صورة لا تقل دوراً عن
الشعر .



المصادر والمراجع

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس، أبي القاسم محمد بن عبدالغفور الكلاعي (ت ٥٥٠ هـ) ، حققه وقدم له : محمد رضوان الداية، الناشر : عالم الكتب - بيروت، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ.
- ٣- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، إبراهيم الأبياري.
- ٤- الأدب الأندلسي بين التأثر والتأثير : د.محمد رجب البيومي ،إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
- ٥- الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، د. مصطفى الشكعة ، دار العلم للملايين - بيروت ، الطبعة الخامسة (١٩٨٣م).
- ٦- أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري تأليف فايز القيسي، طبع في دار البشير ، عمان الأردن ، ط الأولى ، ١٩٨٩ م.
- ٧- أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ، شهاب الدين التلمساني ، تحقيق سعيد أحمد أعراب ،د. عبدالسلام الهراس، الناشر اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي (١٤٠٠هـ-١٩٨٠م).
- ٨- استدعاء الشخصيات التراثية في الشعر العربي المعاصر ، زايد علي عشري .
- ٩- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمود شاكر أبو فهر، مكتبة الخافجي، ط١، ١٩٩١م.
- ١٠- الأسلوب الأقوى والألطف في التغيير، نايف الزريق، تقديم : الأستاذ سمير البشير .
- ١١- أسماء خيل العرب وأنسائها وذكر فرسانها ، لأبي محمد الأعرابي الملقب بالأسود الغندجاني ، تحقيق أ.د. محمد علي سلطاني ، دار العصماء ، دمشق ، ط ١ ، ١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٧ م.

- ١٢- إشبيلية في القرن الخامس الهجري : دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في إشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها، صلاح خالص، الناشر : دار الثقافة - بيروت، ١٤٠١ هـ.
- ١٣- إعتاب الكتاب، لابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي، تحقيق صالح الأشر، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٦١ م.
- ١٤- الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال و النساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلي، ج١، بيروت سنة ١٩٨٠ م.
- ١٥- الأمالي، لأبي علي القالي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون بن عيسى بن محمد، ، مصر، ١٣٢٢ هـ، مطبعة بولاق بعناية إسماعيل يوسف التونسي، ج ١.
- ١٦- الإمامة والسياسة، محمد عبد الله ابن مسلم بن قتيبة الدينوري، طبعة مصر سنة ١٩٠٤ م.
- ١٧- أمثال العرب تقديم وتعليق إحسان عباس ، دار الرائد العربي ، بيروت ، ١٤٠١ هـ-١٩٨٠ م.
- ١٨- الإنسان والطبيعة في شعرية ابن خفاجة والرومانسيين الفرنسيين، د. زهر العناني، دار المتنبي للنشر والتوزيع، الأردن ، ط١ ، ٢٠٠٢ م.
- ١٩- أيام العرب في الجاهلية، لمحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجبل للطبع والنشر والتوزيع، ط١، ج١، ١٩٩٨ م.
- ٢٠- الإيضاح في علوم البلاغة، الخطيب القزويني، دار الكتب العلمية ، بيروت الطبعة الأولى: ١٩٨٥ م.
- ٢١- البديع، عبدالله بن معتر العباسي-تعليق: اغناطيوس كراتشكوفسكي، طبعة لندن-لينينجراد، سنة ١٩٣٥ م.
- ٢٢- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة الضبي، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٩٧ م.

- ٢٣- البلاغة العربية (البيان والبدیع) ، د. وليد قصاب ، دار القلم ، دبي - الإمارات ، ط الأولى (١٤١٨ هـ - ١٩٩٥).
- ٢٤- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، لابن عذارى: أبو عبدالله أحمد بن محمد المراكشي، تحقيق: س . كولان، ليفي بروفنسال، ليدن، هولندا، ١٩٤٨م: ج ١.
- ٢٥- البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق: عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٠م.
- ٢٦- تاريخ افتتاح الأندلس، بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم ابن القوطيه.
- ٢٧- تاريخ الأدب الأندلسي، د. إحسان عباس، دار الثقافة بيروت ١٩٦٩ م.
- ٢٨- تاريخ الأدب العربي، كارل بروكلمان . تعريب الدكتور : عبد الحليم النجار، ١٩٨٣: ج ٢.
- ٢٩- التبيان في علم البيان المطلع على حسن التوصل إلى صناعة الترسل لشهاب الدين الحلبي ، تحقيق أكرم عثمان يوسف دار الرشيد للنشر ، بغداد - ١٩٨٠م.
- ٣٠- ترسل الفقيه الكاتب ابن أبي الخصال ، تحقيق: دكتور محمد رضوان الداية، ١٩٨٧م.
- ٣١- التكملة لكتاب الصلة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله البناسي المعروف بابن الأبار، نشر. السيد عزت العطار الحسيني. د. ط. القاهرة، ١٣٧٥ هـ - ١٩٥٦م.
- ٣٢- التوابع والزوابع ، لابن شهيد ، تحقيق بطرس البستاني ، دار صادر - بيروت .
- ٣٣- توظيف الموروث الثقافي في النثر الفني الأندلسي في القرن الخامس الهجري ، سطم عواد نايف القويدر، جامعة مؤتة ٢٠٠٧م.

- ٣٤- إعجاز القرآن لعبدالواحد الزملكاني ، تحقيق أحمد مطلوب ، مكتبة العاني ، بغداد ١٩٦٤م.
- ٣٥- جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، أبو عبدالله محمد بن فتوح بن عبدالله الحميدي، تحقيق: محمد تاويت الطنجي، ط١، مكتب نشر الثقافة الإسلامية - القاهرة، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٢م، ج٢.
- ٣٦- جماليات الأسلوب " الصورة الفنية في الأدب العربي " /د. فايز الداية، دار الفكر - دمشق ، الطبعة الثانية (١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م) .
- ٣٧- جماليات الأسلوب (الصورة الفنية في الأدب العربي) ، صبحي البستاني ، دار الفكر اللبناني - بيروت ط الأولى (١٩٨٦م) .
- ٣٨- جمهرة الأمثال، للعسكري، تحقيق أحمد عبدالسلام - محمد سعيد بن بسيوني زغلول أبو هاجر ، الناشر دار الكتب العلمية (١٤٠٨هـ-١٩٨٨م).
- ٣٩- جمهرة أنساب العرب، لابن حزم الأندلسي، تحقيق: عبدالمنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، ط٢، ج١، ٢٠٠٩م.
- ٤٠- جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب ، منشورات مؤسسة المعارف ، بيروت .
- ٤١- الحلة السبراء لابن الأبار، تحقيق: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣م.
- ٤٢- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية لمؤلف أندلسي ، تحقيق : سهيل زكار وعبدالقادر زمامة ، مطبعة التقدم الإسلامية عدد ٣٤ ، تونس الطبعة الأولى (١٣٢٩هـ).
- ٤٣- الحيوان للجاحظ، عثمان عمرو بن بحر محبوب الكناني الليثي البصري، (١٥٩-٢٥٥ هـ)، طبعه وشرحه وصححه أحمد العواملي وعلي أمين، المطبعة الأميرية - القاهرة، ١٩٥٧م.

- ٤٤- خريدة القصر وجريدة العصر، لأبي محمد صفي الدين عبدالله بن محمد الأصفهاني، تحقيق: آدرتاش وآذنوش، نقحه وزاد عليه محمد المرزوقي - محمد العروس، الدار التونسية للنشر - تونس، ١٩٧١ - ١٩٧٢م، ج٢.
- ٤٥- خطرة الطيف رحلات في المغرب والأندلس، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق احمد المختار عبادي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط١، ٢٠٠٣م.
- ٤٦- دائرة معارف الشعب (٦٣).
- ٤٧- دائرة معارف الشعب (٦٤).
- ٤٨- دائرة معارف الشعب عدد ٦٤.
- ٤٩- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: د. محمد رضوان الداية ود. فايز الداية، دار الفكر، الطبعة الأولى (١٤٢٨ هـ / ٢٠٠٨م).
- ٥٠- الدولة العربية في إسبانيا، إبراهيم بيضون، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٦م، ط٣.
- ٥١- ديوان ابن خفاجة الأندلسي، تحقيق السيد مصطفى غازي، منشأة المعارف، القاهرة ١٩٦٠م.
- ٥٢- ديوان ابن زيدون ورسائله، تحقيق علي عبدالعظيم، الناشر دار نهضة مصر للطباعة والتوزيع، القاهرة (١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م).
- ٥٣- ديوان ابن عبدربه، تحقيق محمد رضوان الداية، ١٩٧٩، ١٣٩٩.
- ٥٤- ديوان المتنبي، ابو الحسن الواحدي، احمد بن محمد بن علي بن متويه.
- ٥٥- الذخيرة في محاسن أهل هذه الجزيرة، أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٣٩هـ، ١٩٧٩م: ق١م١.

- ٥٦- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، تحقيق : إحسان عباس، ط ١، ١٩٦٥ م، دار الثقافة، بيروت - لبنان.
- ٥٧- رحلة الأندلس :حسين مؤنس، ط ١، مطابع كوستا توماس القاهرة سنة ١٩٦٤م.
- ٥٨- رحلة الوزير في أفكاك الأسير ، محمد الغساني الأندلسي، تحقيق نوري الجراح ، دار السويدي للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ٢٠٠٢م.
- ٥٩- الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي، فوزي عيسى، دار المعرفة الجامعية، ٢٠٠٢م.
- ٦٠- رسائل ابن أبي الخصال، لأبو عبد الله بن أبي الخصال الغافقي الأندلسي ٥٤٠ هـ تحقيق : د/ محمد رضوان الداية . نشرة : دار الفكر ...
- ٦١- الرسائل الإخوانية عند كتاب الأندلس في القرن السادس الهجري محاورها المضمونية سماتها الشكلية ،ابتسام الصبحي.
- ٦٢- رسائل ومقامات أندلسية ، تحقيق : د. فوزي عيسى ، المكتب الإسلامي - بيروت ، الطبعة الثالثة (١٤٠٨هـ-١٩٨٧م) .
- ٦٣- رسائل ومقامات أندلسية، تحقيق: الدكتور فوزي سعد عيسى، منشأة المعارف بالإسكندرية، بدون تاريخ.
- ٦٤- الروض المعطار، محمد بن عبد المنعم الحميري المحقق : إحسان عباس الناشر : مؤسسة ناصر للثقافة - بيروت - ط ٢ ، ١٩٨٤ .
- ٦٥- زاد المسافر وغرة محيا الأدب السافر، لأبي بحر صفوان بن ادريس التجيبي المرسي ؛ أعده وعلق عليه عبد القادر محداد.
- ٦٦- زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني (ت ٤٥٣هـ، ١٠٦٠م)، تفصيل وضبط وشرح: الدكتور زكي مبارك، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة : دار الجيل / الرابعة، ١٩١٦م.

- ٦٧- زهرة الاكم في الأمثال والحكم ، نور الدين أبو علي الحسن بن مسعود اليوسي ، ط١ ، تحقيق محمد صبحي ومحمد الأخضر ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨١م.
- ٦٨- شرح مختصر البيان المسفر عن وجوه التبيان ، مصطفى رضوان ، مطبعة بولاق (١٨٧٨).
- ٦٩- الشعر في ظل بني عباد، محمد مجيد السعيد، مطبعة النعمان، ١٩٧٢م.
- ٧٠- صبح الأعشى في كتابة الإنشاء، أبو العباس أحمد القلقشندي، دار الكتب المصرية، ١٣٤٠هـ - ١٩٢٢م.
- ٧١- الصلة لابن بشكوال ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، دار الكتب المصري، دار الكتب اللبناني ، ط١ ، ١٤١٠هـ .
- ٧٢- الصناعتين، أبي هلال العسكري، ترجمة، تحقيق: مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، ط٢، ١٩٨٩م.
- ٧٣- الطبيعة الأندلسية وأثرها في استثمار اللون الشعري ، لؤي صيهود فواز.
- ٧٤- الطبيعة في الشعر الأندلسي ، د.جودت الركابي ، مطبعة الشرقي بدمشق، ط٢، ١٩٧٠م، ص٢٢.
- ٧٥- عالم التراث الشعبي ، لطفي الخولي ، الموسوعة الصغيرة (٤٠) ، منشورات وزارة الثقافة والفنون العراقية ، بغداد ، ١٩٧٩م.
- ٧٦- عبد الواحد المراكشي: «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، مطبعة الاستقامة، مصر، ط١، ١٩٨١، تحقيق. محمد سعيد ومحمد العلمي.
- ٧٧- عجائب المخلوقات وغرائب الكائنات، لأبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود الانصاري القزويني، دوائر المعارف العربية.
- ٧٨- عجائب المخلوقات وغرائب الكائنات، لأبو عبد الله زكريا بن محمد بن محمود الانصاري القزويني، دوائر المعارف العربية: ص٣٧١، النفح: ج١، ١٩٨ - ٢٠٠.

- ٧٩- عصر الطوائف والمرابطين، تأليف: احسان عباس، دار الشروق، ط٣، ٢٠٠٨.
- ٨٠- عصر الطوائف والمرابطين، تأليف: احسان عباس، دار الشروق، ط٣، ٢٠٠٨ م.
- ٨١- علم البيان / د . عبدالعزيز عتيق ، دار النهضة العربية - بيروت (١٤٠٥هـ-١٩٨٥م).
- ٨٢- العمارة المدنية وتطورها في الأندلس : السيد عبدالعزيز سالم .
- ٨٣- عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، المؤلف: الشيخ العلامة أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله الغبريني الجزائري، تاريخ النشر: أبريل (نيسان) ١٩٧٩، حققه وعلق عليه: الأستاذ عادل نويهض، الناشر: دار الآفاق الجديدة .بيروت لبنان، الطبعة: ٢، وقد نشر هذا الكتاب لأول مرة في مدينة الجزائر سنة «١٩١٠م» بعناية الأستاذ محمد بن أبي شنب.
- ٨٤- الفن العربي بأسبانيا، فون شاك ، ترجمة وتحقيق / د. الطاهر أحمد مكي ، الناشر دار المعارف ، (١٩٩٨).
- ٨٥- الفن ومذاهبه في النثر العربي، أحمد شوقي عبد السلام ضيف الشهير بشوقي ضيف (المتوفى: ١٤٢٦هـ)، دار المعارف، الطبعة: الثالثة عشرة، ج ١ .
- ٨٦- في النقد الأدبي ، شوقي ضيف ، دار المعارف ، الطبعة التاسعة .
- ٨٧- قرطبة حاضرة الخلافة ، السيد عبدالعزيز سالم ، الناشر مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٧٩.
- ٨٨- قضاة قرطبة، أبو عبدالله محمد بن الحارث بن أسد القيرواني الخشني.
- ٨٩- قلائد العقيان ومحاسن الاعيان ، لابن خاقان ، تحقيق / د. حسين يوسف خربوش ، الناشر مكتبة المنار الطبعة الأولى (١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م).

- ٩٠- القلائد من فرائد الفوائد، مصطفى السباعي، دار الوراق للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٢م، ج١.
- ٩١- أعمال الأعلام، لابن الخطيب، نشره ليفي بروفنسال، الرباط ١٩٣٤م.
- ٩٢- الأندلس، بقلم ج. س. كولان، دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري، ط١، ١٩٨٠م.
- ٩٣- التشبيهات من أشعار أهل الأندلس، محمد الكتاني الطبيب، تحقيق إحسان عباس، ط١، الناشر دار الشروق، بيروت- القاهرة، ١٩٨١.
- ٩٤- حسن التوسل إلى صناعة الترسل، الشهاب محمود بن سلمان الحلبي، مطبعة أمين أفندي هندية.
- ٩٥- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير - ابن أبي حديد - تحقيق: أحمد الحوفي.
- ٩٦- المجتمع الأندلسي في العصر الأموي، د. حسين يوسف اويدار، ط١.
- ٩٧- مجمع الأمثال الميداني: أبو الفضل أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم النيسابوري، (٥١٨)، تحقيق: د. جان عبدالله توما، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى (١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م).
- ٩٨- محمد بن أحمد الذهبي: «سير أعلام النبلاء». مؤسسة الرسالة. سوريا. ط٩. ١٩٩٧. تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد العرقسوسي. ج٣.
- ٩٩- مروج الذهب ومعادن الجوهر، المسعودي-توم بريمير، طبعة باريس ١٩١٦م: ج٦.
- ١٠٠- المساجد والقصور في الأندلس، السيد عبدالعزيز سالم، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٨٦م.
- ١٠١- مطح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي أبو نصر، تحقيق: محمد علي شوابكة، الناشر: دار عمار - مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣ - ١٩٨٣، ج١.

- ١٠٢- مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي أبو نصر، تحقيق: محمد علي شوابكة، الناشر: دار عمار - مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣ - ١٩٨٣، ط١.
- ١٠٣- المعتقدات الشعبية في التراث العربي، دراسة في الجذور الأسطورية والدينية والمسلكية الإجتماعية، حسن الباش، دار الجليل دمشق، ١٩٨٥م.
- ١٠٤- المعجب في تلخيص أخبار المغرب، محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي، طبعه ليدن سنة ١٨٨١م.
- ١٠٥- المعجم الوسيط ج ٢، ١، قام بإخراجه مصطفى إبراهيم ومجموعة مؤلفين، مؤسسة دار الدعوة للتأليف والطباعة والنشر والتوزيع، استنبول، تركيا.
- ١٠٦- معجم لسان العرب، ابن منظور، دار لسان العرب - بيروت - ١٩٧٠م.
- ١٠٧- المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد المغربي، تحقيق: د. شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ج ٢.
- ١٠٨- مفهوم الخيال ووظيفته في النقد القديم والبلاغة، د. فاطمة سعيد حمدان، سلسلة الرسائل العلمية الموصى بطبعتها (٢٩) - معهد البحوث العلمية - مكة المكرمة (١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م).
- ١٠٩- مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، ١٣٧٧م.
- ١١٠- من الإقليم الشامي، أبو عامر السلمي، ١٩٨٩م.
- ١١١- ميدان الحوار الأدبي بين المشرق والأندلس، أيمن ميدان، دار الوفاء، الإسكندرية، ٢٠٠٣م.
- ١١٢- النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس " مضامينه وأشكاله " / د. علي بن محمد، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى (١٩٩٠م).

- ١١٣- نشر أبي العلاء المعري ، دراسة فنية ، رزق صلاح ، ط١ ، دار الثقافة العربية ، القاهرة ، ١٩٨٥م، ص٢٠٠.
- ١١٤- النشر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين، حازم عبدالله خضر، ١٩٥٥م.
- ١١٥- النشر الفني في عصر الموحدين وارتباطه بواقعهم الحضاري، رضا عبدالغني الكساسبة، دار الوفاء، ٢٠٠٤م.
- ١١٦- نزهة المشتاق، للإدريسي، تحقيق دوسيه لامار، الجزائر ١٩٤٩م.
- ١١٧- نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني، تحقيق. د/ إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- ١١٨- النقد الأدبي ومدارسه الحديثة، ستانلي هايمن، ترجمة : إحسان عباس، الناشر: دار الثقافة - بيروت - لبنان، ط١، الجزء : ١ ، ١٩٥٨ م، الجزء: ٢ ، ١٩٦٠ م.
- ١١٩- النقد العربي الحديث ومذاهبه ، تأليف محمد عبدالمنعم خفاجي، تحقيق محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني - القاهرة ، ط٣ (١٤١٣هـ - ١٩٩٢)
- ١٢٠- نقد النثر، لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، حققه وعلق حواشيه: د. طه حسين و عبد الحميد العبادي، (طبع بالمطبعة الأميرية ببولاق ١٩٤١م).
- ١٢١- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أبيك بن عبد الله الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث - بيروت، ١٤٢٠هـ- ٢٠٠٠م .
- ١٢٢- وفيات الأعيان، أحمد بن محمد ابن خلكان: دار الثقافة. بيروت. ط١. ١٩٦٧. تحقيق : إحسان عباس. ج ١ .

١٢٣ - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبو منصور عبدالملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، طبعه الشيخ محيي الدين عبدالحميد (القاهرة) في أربعة أجزاء و صدر في بيروت أيضاً.

المحتويات

الصفحة	الموضوع
أ - ع	مقدمة الدراسة
١	التمهيد
٢	مكانة الرسائل في الأندلس

الصفحة	الموضوع
٨	أهم الكتاب
١٥	التقديم
١٨	الفصل الأول
١٩	المبحث الأول : الطبيعة المتحركة
٢٢	الحيوان
٢٩	القط
٣٠	الطير
٣١	الزرزوريات
٣٥	الإوزة
٣٦	البيغاء
٣٦	العصفور
٣٧	الحمامة
٣٨	البرغوث والبعوض
٣٨	البرغوث
٤٠	البعوض
٤١	المبحث الثاني : الطبيعة الصامتة
٤٥	الأودية
٤٥	الأنهار
٤٨	وصف الغيث
٥١	الأشجار
٥٨	النافورة
٦١	وصف المساجد
٦٦	وصف المنازل

الصفحة	الموضوع
٧٠	الفصل الثاني
٧٢	المبحث الأول : بنية الرسالة
٧٤	أولاً : استفتاح الرسائل
٧٧	ثانياً : العرض
٧٩	ثالثاً : أساليب الختام
٨١	الجمل الدعائية والمعتزلة
٨٣	المبحث الثاني : البناء اللغوي
٨٤	الوضوح والغرابية في الألفاظ
٨٧	الغرابية في الألفاظ
٨٨	الجزالة
٩١	الاساليب
٩٨	الاقتباس والتضمين
٩٩	أولاً : القرآن الكريم
١٠١	الشعر
١٠٦	الأمثال والرموز الأسطورية
١٠٩	الإيجاز والإطناب
١١٢	الصورة البيانية
١١٥	التشبيه
١٢٠	الاستعارة
١٢٥	المجاز
١٢٨	الصورة الكنائية
١٢٩	صور أخرى مبنية على التشخيص
١٣١	الطباق

الصفحة	الموضوع
١٣٣	السجع
١٣٨	الازدواج
١٤٠	الجناس
١٤٥	الخاتمة
١٤٩	المصادر والمراجع
١٦٣	المحتويات